حنان لحام

أضواء على سورة يس

مقدم

جورت سعيد

حنان لحّام

أضواء على سورة يس

مسرحيات

تقديم
جودت سعيد

دار الثقافة للجميع
دمشق ص.ب ٥١٦

الحمد لله
وسلام على عباده الذين اصطفى

ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم

البقرة « ١٢٧ »

الطبعة الاولى
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
جميع الحقوق محفوظة

تقديم
جورت سعيد

بسم الله ، الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

ـ كما كان بدء الاسلام بنزول قوله تعالى ((**إقْـرَأْ باسمِ ربِّكَ الَّذي خَلَقَ**))(١) . فإن عـودة الاسـلام ((**لِيُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه**))(٢) ، لن تكون الا بعودة الامة الاسلامية الى القرآن الكريم ؛ يتدبرون آياته ، ويتلونه حق تلاوته ، ويتمسكون بالكتاب ، ويرون في الآفاق والانفس آيات الله التي تبيّن أن ما جاء به القرآن هـو الحق : ((**أَوَلَمْ يكفِ بربِّكَ أنَّهُ على كل شَيْءٍ شهيد**))(٣) .

وقد ظلّ العالم الاسلامي الى وقت قريب ، يعلّم أبناءه كتاب الله ، تلاوة .. يُرسل المسلمون أبناءهم الى مَنْ يُعلّمهم تلاوة كتاب الله ، حتى اذا ختم كتاب الله ، احتفلوا بهذه المناسبة قـدر جهدهم . ولكن قلّما كان يُصاحب هـذه التلاوة ، وهـذا الخَتْم محاولـة فهم آيـات كتـاب الله ، لأنهـم كانـوا يظنـون ذلك نوعـاً مـن التطـاول وتجـاوز القـدْر . أو أنّ كتب الفقـه أغنت عـن ذلـك .. وربمـا يصحب هـذا وذاك أيضـاً نوع من تعظيم الله وكتابه ، حتى لا يخطىء في التفسير . وقـد أحيطت محاولة فهم كتاب الله ، بأنـواع من الخوف والاجـلال

---

(١) سورة العلق ـ الآية ١ .
(٢) سورة الفتح ـ الآية ٤٨ .
(٣) سورة فصلت ـ الآية ٤١ .

والتقديس واحتقار الذات وتبجيل السلف وتعظيمهم . وان محاولة فهم القرآن فيها ادّعاء لمقام الاجتهاد أو ادّعاء لبلوغ درجة السلف أو تجاوزها ، او اتهامهم بأنهم قصروا في فهمه ، ولم يؤدوا ماعليهم.

تلك بعض العوامل التي صرفت المسلمين عن تدارس كتاب الله وفهمه والعمل به . ولن يتم العمل به الا وكان العلم به قبل ذلك .

فكما شاع في العالم الاسلامي إهمالُ تعلّم معاني القرآن وتفسيره في صورة تعظيمه واجلاله ؛ فلا بدّ أن يشيع الآن الحرص على تعلّم كتاب الله تعالى وتعليمه للصغار والكبار ، للرجال والنساء بأبدع الوسائل وأبلغها . والقيام بعملية مسح لتعليم الامة القرآن، ومحو الجهل به ليؤدّوا أمانة البلاغ . ولا بد أن يتغلغل هذا الحرص في أعماق الامة ، وأن يتحول إجلال كتاب الله تعالى من التحصّن به كحجاب الى التمسك به كعلم يخرج من الظلمات الى النور . ومن تلاوته لنيل ثواب عدد حروف ما تلاه ، الى محاولة فهمه ككتاب من أدقّ كتب العلوم لمعرفة سلامة سلوك الافراد والجماعات، ومعرفة الغايات والوسائل ، وتأمّل سير الامم الخالية والحاضرة.

وينبغي أيضا أن يتحول القرآن في الدراسات الابتدائية والثانوية من حفظ بعض السور القصيرة ، أو بعض الآيات المتفرقة ـ في صورة لا تمثل إلا سَقَطَ المتاع في منهاج الدراسات .. ـ الى مقام يليق بكتاب نزل به الروح الامين من رب العالمين ..

كذلك ينبغي أن تدخل دراسة القرآن في الدراسات العليا حيث لا وجود له فيها .

وعلى كل حال فهذه أمنيات لا يمكن أن تتحقق طالما أنه ليس للامة فهم لكتاب الله الا ما هو عليه الآن .

ان الدراسات الابتدائية متعلقة بنهاية الدراسات العليا .. وان آخر ما يصل اليه العلم يجدّد أول ما بدأ به . ونهاية مايصل اليه العلم ، يساعد على تجديد الكيفية التي يتعلم بها الناشىء القراءة والكتابة أول ما يبدأ به . وكذلك فان نهاية العلم بكتاب الله يرشد الى كيف يكون تعليم القرآن لأبناء الامة على الوجه الاقوم أوّل ما يبدؤون التعليم .

ان النوايا الطيبة ، أو الحسرات التي تنبىء عن الاخلاص ، غير كافية لتحويل القرآن من كتاب للتبرك الى كتاب لاخراج الناس من الظلمات الى النور . كلا ، ولا بأن يصير الامر والنهي لأصحاب النيات الطيبة في العالم الاسلامي ، كما يتخيله كثير منهم . بل لو صار الامر بيدهم ، وهم على ما هم عليه من ضيق النظر ، وضحالة الفكر ، لما كان افسادهم أقل من افساد غيرهم . كما أن شوقهم للإساءة الى غيرهم ليست ادنى من شوق الآخرين للإساءة لهم .

في مثل هذه الظروف ، لا يكون الخلاص في المؤسسات التعليمية ، ولا في الجماعات (النرجسية) التي ليس لها همّ الا لوم الآخرين ، وتنزيه ذواتهم . ولا في الدول التي ليس لها هم إلا حفظ ذواتها ... في مثل هذه الظروف ، يكون الامل في الافراد الذين يدأبون ويجدّون ، ويجتهدون ، لرؤية سنة الله في الفلاح ، والهلاك .. وهؤلاء هم خميرة المجتمع الصالح ، وهم الذين يمكنهم أن يشعّوا نور المعرفة ويرشدوا الى الصواب ، ويدلّوا على النهج الجديد الذي هو قديم قِدَمَ سنة الله التي لا تبديل لها ، ولا تغيير ... ان هؤلاء الافراد يمكنهم أن يفتحوا الاعين ، ولو بعد حين على ما سيكون المضمون الحي للمؤسسات التعليمية ، وعلى القيمة الحقيقية لمعنى الجماعة ، وعلى المسؤولية التي يتحملها من يُسند

اليه الامر ... ان الافراد دائما هم الذين يكتشفون السنن ، او يهتدون الى الصواب في الآفاق والانفس ، وما يهتدون اليه يكون حياة ولبّ أوْ روح ـ حسب تعبير بعضهم ـ المؤسسة التعليمية، والجماعة الراشدة ، والائمة الهداة .. وتفقد هذه المؤسسات التعليمية والاجتماعية والسياسية مضامينها ، عندما يفقد العلم الحق مضمونه(١) .

والعلم الحقيقي ، كالثمرة فوق الجذور والاغصان ، ينبت في رؤوس الافراد ، ومنه يشع ويعم . ومنهم تزدهر المؤسسات التعليمية والاجتماعية والسياسية .

والعالم الاسلامي في وضعه المتردّي ، لم يظهر فيه الافراد الاكفاء المؤهلون لادراك هذا الموضوع بما يستحقه .. أو انّ الذين ظهروا من الندرة ـ مع غشيان اغلال القرون الماضية ـ بحيث لم يُسمع لهم صوت ، ولم تنتبه اليهم اذن . ولكن وإن كنا في أعقاب تلك العهود المظلمة ، الا اننا مع تباشير صبح الساهرين على طلب

---

(١) عن زياد بن لبيد انه قال : ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فقال : « وذاك عند ذهاب العلم » ، قلنا يا رسول الله : وكيف يذهب العلم ، ونحن نقرأ القرآن ، ونُقرئه أبناءنا ، وأبناؤنا يقرؤونه أبناءهم الى يوم القيامة ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا ابن لبيد ، إنْ كنتُ لأراك منْ افقهِ رجل بالمدينة . أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والانجيل ولاينتفعون بما فيهما بشيء » ـ ذكره ابن كثير في تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ، وصححه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ، ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى اذا لم يترك عالما ، اتخذ الناس رؤوساً جهالا ، فسئلوا : فافتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا . » رواه المنذري في مختصر صحيح مسلم برقم ١٨٥٨ . ص ٤٩١، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ، بيروت، دار العربية.

العلم وفتح الابصار والاسماع ، ووضع كل شيء على الموازين القسط ليذهب الزبد جفاء ، ويبقى ما ينفع الناس في أرض الله التي يرثها عباده الصالحون أولوا الالباب والبصائر ، والذين تخلّصوا من ربقة الآبائية .. انْ لم يمكنهم أن يكشفوا نهاية الصراط المستقيم ، فسيدلّون على بدايته .. ليدلّوا النشء على أنْ يسلكوه ، ويسيروا في الارض وينظروا كيف بدأ الله الخلق .

والاخت الكريمة ، التي تخلّصت منْ كثير من المواريث السلبيّة ، وتحلّت بقدر مشكور من الجراة ، تدخل هذا الميدان بعلمها وعملها ، وهي تعرف انها تملك شيئاً من العلم الحق ، مع يقينها انها لم تبلغ القدر الذي يحتاج اليه الموضوع . فهي وإنْ لم تكن من الكاشفات لنهاية الصراط ، فهي بالتأكيد من الدّالات للنشء على سلوك هذا الصراط ... وهي تقدم هذا الجهد ، وهي جديرة بتحمل أمانة الافكار .

جودت سعيد

٢٢ رجب ١٣٩٨ هـ

٢٧ / ٦ / ١٩٧٨ م

* * *

مقدمة

ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وبعد .. فان لسورة «يس» مكانة خاصة في قلوب المسلمين .. يحفظونها ويوصون بحفظها .. أو يقرؤونها ويوصون بقراءتها في مناسبات متعددة .. ولعل هذه الصلة الودود مع سورة يس ، متأثرة بما ورد من أحاديث في فضلها .. من مثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن قرأَ يس في يوم وليلة ابتغاءَ وجه الله ، غفر له » (١) .. ومع ذلك فان هذه الصلة تأخذ طابعا سلبيا، وتفتقر الى الحيوية والتفاعل اذ أننا لم نصل الى المستوى الذي ذكره محمد اقبال ـ رحمه الله ـ كوصية تلقّاها من والده : « ... يابني اقرأ القرآن وكأنه يتنزل اليك » . والعالَم الاسلامي أحوج ما يكون الى تجديد صلته

---

(١) رواه ابن السنّي في « عمل اليوم والليلة » من حديث ابي هريرة . وعزاه المنذري في « الترغيب والترهيب » لمالك ، وابن السني ، وابن حِبّان في صحيحه من حديث جندب ، وعزاه صاحب المشكاة للبيهقي ـ من شعب الايمان ـ من حديث معقل بن يسار ورواه الطبراني في الدعاء ، والدّارمي في سننه من حديث ابي هريرة . وللحديث طرق ينهض بها .

بالقرآن الكريم ، حتى يتفاعل معه .. وكيف يتفاعل معه إن لم يتدبره ..؟! ألم يحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن اناس يأتون من بعده : « **يقرؤون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الاسلام ، كما يمرق السهم من الرمية ..** »(١) .

وفي هذه الصفحات ، حاولت أن ألقي بعض الاضواء على السورة ، لتساهم في تحريك المسلم ، ودفعه الى طلب المزيد من الفهم ، والتدبر كي تعود الصلة الفعّالة الايجابية بينه وبين كتاب الله من جديد .. وانني لأرجو من الله تعالى : أن تكون هذه المحاولة خطوة على الطريق .. طريق يقظة المسلمين ونهضتهم ؛ مع علمي بقصورها ، وضآلتها .. فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علّمنا أن لا نحقر من المعروف شيئا مهما كان قليلا ..

فاعتذاري من القرّاء ان وجدوا ضعفا وقصورا .. ورجائي منهم أن يسيروا في هذا المجال ليكملوا الطريق ، ويعيدوا الحركة والحياة الى أفكارنا وأعمالنا ..

« **ربّنا تقبّل منا انك أنت السميع العليم ..** »

« **ربنا واجعلنا مسلِمَيْن لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرِنا مناسكنا ، وتُبْ علينا ، انك أنت التواب الرحيم .** » .

حنـان لحـام

دمشق

١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م

---

(١) من حديث في الصحيحين عن علي بن ابي طالب .

سورة يس

مكية

مكيـــة وآياتهـــا ٨٣ آيـــة

هذه السورة ، تتناول القضايا التي طرحت على الانسان في العهد المكي ، ليتأمّلها من خلال العرض القرآني الحافل بالمؤثرات ، والذي يأخذ على النفس الانسانية أقطارها ، وينثال عليها من كـل جانب ، فلا تملك ـ ان كانت منصفة ـ الا أن ترتعش بخشوع وهي تسبح الخالق العظيم ... انها المواضيع التي تناولها القرآن المكي كله :

القرآن : وحيٌ منزّل من الله ، الخالق المبدع لهذا الكون ..

الرسل : بَشَرٌ اختارهم الله ـ عن جدارة ـ لحمـل هـذه الامانة وتبليغ الرسالة للناس .

توحيد الله : الذي تتجلّى قدرته في هذا الكون .. بالعبادة والطاعة والدعاء ..

مصارع الغابرين : الذين لم يحققوا توحيد الله في حياتهم عبر التاريخ ... ولم يُعملوا عقولهم في تأمل العاقبة الدنيوية للشرك..

البعث والحساب : ومشاهد النعيم للمحسـنين والجحيم للمسيئين .. لتأمّل العواقب الاخروية .

وسورة (يس) ، تبدأ بالحديث عن القرآن ، وتختم به أيضا، وكأنها تقرع سمع الانسان ، وتلح عليه كي يحدد موقفه من القرآن .. وتجعله يشعر بأن كل الادلة .. والكون بآياته ، والتاريخ بأحداثه .. تفرض علينا الايمان والانصياع لهذا القرآن .

هيكل السورة

الموضـــوع

١ ـ القرآن ومواقف الناس منه :

(الآيات من ١ الى ١٢)

١ً ـ القرآن منزّل ، ومحمد صلى الله علية وسلم مرسل.
٢ً ـ الهدف من ذلك هو : الانذار .
٣ً ـ المعرضون لا يستفيدون من وسائل المعرفة المتاحةلهم.
٤ً ـ الذين ينفعهم الانذار .
٥ً ـ اشارة الى البعث والحساب .

٢ ـ قصة أصحاب القرية :

(الآيات من ١٣ الى ٣٢)

١ً ـ المرسلول مع أصحاب القرية .
٢ً ـ مؤمن يسعى لنصرة الرسل .
٣ً ـ تعقيب على القصة .

٣ ـ آيات من الكون :

(الآيات من ٣٣ الى ٤٤)

١ً ـ احياء الارض .
٢ً ـ الليل والنهار .
٣ً ـ الشمس والقمر .
٤ً ـ الفلك .

الموضـــوع

٤ ـ من مواقف الكفار :

(الآيات من ٤٥ الى ٤٨)

١ً ـ يَرَوْنَ الآيات ويُعرضون .
٢ً ـ بُخلهم ، وسوء فهمهم للرزق .
٣ً ـ يكذّبون بالساعة .

٥ ـ الموت والقيامة :

(الآيات من ٤٩ ـ ٦٨)

١ً ـ الموت .
٢ً ـ البعث والحشر .
٣ً ـ اليوم لا تظلم نفس شيئا .
٤ً ـ أصحاب الجنة .
٥ً ـ توبيخ للمجرمين على عبادتهم للشيطان .
٦ً ـ مصيرهم جهنم .

٦ ـ عودة الى القرآن ومناقشة الانسان :

(الآيات من ٦٩ الى ٨٣)

١ً ـ القرآن ليس بشعر بل هو ذكر وقرآن مبين .
٢ً ـ تذكير الانسان بنعمة الله وقدرته .
٣ً ـ ومع ذلك يتخذون من دون الله آلهة .
٤ً ـ أدلة على البعث :
آ ـ الخلق الاول .
ب ـ النار من الشجر .
ج ـ خلق السموات والارض .
٥ً ـ الختام بتسبيح الله .

الفصل الأول

القرآن ومواقف الناس منه

بسم الله الرحمن الرحيم

يس ① والقرآن الحكيم ② إنك لمن المرسلين ③ على صراط
مستقيم ④ تنزيل العزيز الرحيم ⑤ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم
فهم غافلون ⑥ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ⑦
إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ⑧
وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم
فهم لا يبصرون ⑨ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم
لا يؤمنون ⑩ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب
فبشره بمغفرة وأجر كريم ⑪ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا
وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ⑫

« يس ، والقرآنِ الحكيم » : هذه الاحرف التي افتتحت بها كثير من السور لابد أنها تشير الى مغزى أو أكثر من مغزى .. وذكر المفسرون لها تعليلات كثيرة ، لعل أوضحها وأقواها حتى الآن ما اختاره صاحب الظلال .

« انها اشارة للتنبيه الى ان هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الاحرف ، وهي في متناول المخاطبين به من العرب ، ولكنه مع هذا هو ذلك الكتاب المعجز الذي لا يملكون أن يصيغوا من تلك الحروف مثله .. » (١) . فهو التحدي .. ويبقى البون شاسعا بين كلام الناس والقرآن .... كالفرق بين تماثيل الطين والانسان .. ولا شك بأن تقدم العلم يضيف ويكشف المزيد .. وقد أشار الى ذلك الشيخ رشيد رضا في المنار حين قال : « لا يزال يوجد في الناس حتى علماء التاريخ واللغات منهم من يرى ان في هذه الحروف رموزا الى بعض الحقائق الدينية والتاريخية ستظهره الايام ..»(٢) . ولعل من هذه الحقائق ما ذكره الدكتور خالص جلبي حين تحدث عن مراحل العلم ومعنى الحرف فقال : « عندما تكونت الكتابة ، تشكلت ذاكرة جديدة للبشر ، وحصلت طفرة هائلة للبشرية ، لان المعلومات البشرية بدأت بالتراكم والتكديس والتفاعل ، وبدأت بذور نهضة الحضارات حيث أن الكتابة بدأت بصياغة البشرية صياغة جديدة ، هذه المرحلة من اكتشاف الكتابة تعتبر أخطر تطور في تاريخ البشرية ، لان اكتشاف الحرف كان معناه : تحويل النطق الى كتابة تعبر عما تريد ، وتنقله الى الاجيال القادمة . وهذا معنى كبير أشار اليه القرآن بالتركيز على الحرف في كثير من فواتح السور

---

(١) قطب ، سيد ـ ظلال القرآن ، الجزء الاول ، ص ٣٠ .

(٢) رضا ، رشيد ـ تفسير المنار ، الجزء الاول ، ص ١٢٣ .

« ألم » أو في الاشارة اليه عند خلق آدم « **وعلّم آدمَ الاسماءكلّها** ». القدرة على التعبير بالكتابة . **واكتشاف اللغة لا يقل في أهميته عن مرحلة تحول الانسان من فترة ماقبل الاجتماعية الى الفترة الاجتماعية.** أو بتعبير أدق : ان اكتشاف الكتابة رافق دخول الانسان الحضارة. ان الانسان لم يدخل التاريخ لولا الكتابة ـ على الاقل التاريخ المقروء ـ لذا كان من الاهمية أن يفتتح القرآن بالحرف ما يزيد على عشر سور وهو يؤكد على الحرف » (١) . انها القدرة على اختزال المعرفة بالحرف .. وحبس العلم الذي تحصله الاجيال بالرمز . ومع أن الانسان قد كشف الكتابة منذ أكثر من خمسة الاف سنة الا أن تعميم هذا الخير لم يتم حتى الان . حيث أن ما يقارب نصف البشرية مازال أميّاً ، ومعظمهم يقطن الخط الجنوبي (طنجة ـ جاكرتا) (٢) . على الرغم من اللفتات القرآنية الكثيرة الى العلم والحرف والقراءة .. فتأمل مدى تخلف المسلم عن القرآن(٣)..!! ومع تعميم الكتابة والاستفادة من الحرف ، ينبغي أن تكون لنا

---

(١) جلبي ، خالص ـ الطب محراب الايمان ، الجزء الثاني ص ٢٠ ، الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٩٧٤ .

(٢) خط (طنجة ـ جاكرتا) هو اصطلاح استخدمه الاستاذ مالك بن نبي رحمه الله ، للبلاد النامية « المتخلفة » ومعظمها بلدان اسلامية . راجع كتابه فكرة الافريقية الآسيوية .

(٣) تذكر دائرة الاحصاء في دمشق في آخر احصاء لها عن الامية في العالم العربي لعام ١٩٧٠ : أن نسبة الامية في العالم العربي عامة هي ٧٣٪ ، أما نسبة الامية في كل بلد عربي فيبينها الجدول الآتي :
لبنان ٤٠٪ ، الكويت ٥٢٪ ، سورية ٦٣٪ ، الاردن ٦٥٪ ، العراق ٦٧٪ ، مصر ٧٧٪ ، الجزائر ٨٢٪ ، المغرب ٨٤٪ ، تونس ٨٦٪ ، السودان ٨٨٪ ، ليبيا ٨٩٪ ، السعودية ٩٧٪ ، اليمن ٩٨٪ .
هذا وان نسبة التحسن في رفع الامية لا تتجاوز ١٪ سنويا ..!!

القدرة على تصحيح التراث الذي نقله الينا الحرف ، ذلك أن الكتابة هي الصورة الخطية التي يعبّر بها الانسان عن مافي ذهنه من تصورات عن الكون والحقائق الخارجية. وقد تكون هذه التصورات غير مطابقة للحقائق الخارجية ؛ واضرب على ذلك مثل الامراض الجرثومية : لقد كانت هذه الامراض تقلق ذهن الانسان ، لكن الصورة الذهنية عنها لم تكن مطابقة للواقع الخارجي ، حيث تصوّر الانسان في الماضي انها من فعل الجن ، وحاول معالجتها بالسحر والتعاويذ .. حتى وصل اخيرا الى الصورة الذهنية القريبة من الحقيقة الخارجية، فعرف جراثيم كثير من الامراض.. ولذا ينبغي تصحيح الصورة الكتابية بشكل يتماشى مع كشف المزيدمن آيات الآفاق والانفس. اقول هذا حتى لا يكبّلنا التراث ، ونتجمد على فهم السابقين .. اذ الحركة دليل الحياة ، والتغير الدائم نحو الاحسن هو : دليل صحة هذه الحياة .

نرجع ثانية الى (الاحرف) ، ونقول إنها لفتة الى احدى القدرات الهائلة التي أعطيت للانسان كي يختزل المعلومات ، ويحتفظ بها بالحروف والرموز .. وان هذه القدرة قابلة للتوسع . ولقد استطاع الانسان ان يستعمل لغة « مورس » في البرقيات ، كما استخدم « العقل الالكتروني » لحل كثير من المشكلات ، والمجال مفتوح لاكثر من ذلك .. ولا بد من الاشارة ايضا الى اجتهاد آخر قام به الدكتور رشاد خليفة حول الاحرف التي بدات بها كثير من السور ، اذ يعتبرها دليلا آخر على اعجاز القرآن يناسب هذا العصر الذي هو عصر الرقم والاحصاء ، وقد استخدم في دراسته هذه العقل الالكتروني . ويمكن الرجوع الى البحث الذي قدمه كمحاضرة بعنوان **« دلالات جديدة في اعجاز القرآن »** .

« يس ، والقـرآن الحكيـم » :

وهذه الصفة تستعمل للعاقل . فالانسان الحكيم هو الذي يضع الامـور في مواضعهـا ، ويعرف كيف يتصـرف ويحصـل عـلى النتيجة الجيدة . والقرآن حكيم لانه يخاطب الناس بما يناسبهم، ويرشدهم الى ما يصلح حياتهم ، ويدخل الى القلوب من مداخلها .. حتى قلوب أعدائه .. بل انهم ليعترفون بسلطانه على قلوبهم .. الم يكن بعض السادة من قريش ينطلقون تحت جنح الليل الى جوار بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، كي يسمعوا القرآن ويمتّعوا قلوبهم بحلاوته ، ثم يرجعون قبيل الفجر متخفّين الى بيوتهم(١) ..

يقسم الله بـ « **يس والقرآن الحكيم** » على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورسالته : « **إنّكَ لَمِـنَ المرْسَـلين** » . والانسان لا يجوز له أن يقسم بشيء غير الله تعالى مخافة الوقوع في تعظيم غير الله .. ولكن الله تعالى يقسم أحيانا ببعض مخلوقاته : « **والشمس .. والقمر ..** » .. ليلفت النظر الى عظمة القـدرة التي أبدعتها ، وسخّرتها للانسان . ويصحح مفهوم الانسان عنها .. ويقسم أحياناً ببعض الحقائق الهامة : « **لا أُقْسم بيوم القيامة .. ولا أُقْسِمُ بالنّفسِ اللوامة ..** » .. « **والقرآن الحكيم** » .. كي يقرر أهميتها في القلوب ، وأهمية ما يقسم لتأكيد حقيقته في النفوس .

« **إنّكَ لَمِنَ المرْسَلين** » : وتذكّرني هـذه الآيـة بكتاب

---

(١) تذكر السيرة هذه القصة عن ثلاثة من ابرز الذين حاربوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في مكة ، وهم : ابو سفيان بن حرب ، وعمرو بن هشام ، والاخنس ابن شريق .

(**الرسول**) لمؤلفه سعيد حوى حيث يقول في اوله : « .. سترى في هذا البحث بالدليل والبرهان ، أن محمدا رسول الله حقا . وان محمدا اعظم الناس في كل شيء . وان الذين يتخذون غيره قدوة حمقى وناقصون .. » . وقد يستقبل المسلم هذا الامر بالتسليم ، ولا يشعر بحاجة للاطلاع على مثل الكتاب ، لانه مؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. ولكن ايمانه لا يقارن باليقين الذي يستمتع به قارىء الكتاب .. والايمان على درجات تختلف باختلاف الجهد المبذول لتحصيل العلم .

« **على صراط مستقيم** » : طبيعة هذه الرسالة ، الاستقامة . والطريق المستقيم ، هو أقرب الطرق وأسهلها للوصول الى الهدف .. والسهولة في هذه الرسالة ، تتجلى في العقيدة الواضحة والاوامر الميسرة لقربها من الفطرة بحيث يفهمها ويطبقها البدوي، والمثقف ، وابن القرية ، وساكن المدينة .. وكل الناس يريدون السعادة في الدنيا ، **وواجبنا أن نبرهن لهم أن الاسلام هو أقصر وأسهل طريق للوصول الى السعادة** مع الانتباه الى أن النتائج قد تكون بعيدة المدى ، لان الانسان ينخدع بالعاجلة .. فقد يستمتع شارب الخمر بلحظته غافلا عما ينتظره من هلاك فكري وجسمي واجتماعي(١) .. وقد تظن الفتاة أنها تحصل على السعادة أكثر بدون حجاب لانها لا تتأمل العواقب بعيدة المدى في نفسها ومجتمعها .

« **تنزيل العزيز الرحيم** » : هذا هو المصدر الذي جاء منه

---

(١) راجع كتاب « الادمان اقوى دافع اصطناعي » تاليف د. نل بيجرو ترجمة د. فاروق عبد السلام . ـ الناشر ـ

القرآن .. لقد نزّله العزيز القوي الذي يفعل ما يريد «**أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض فاذا هي تمور ..؟!**»(١).. **الرحيم** الذي أرسل رسله بالهداية والخير لعباده ، لينقذهم من العنت والمشقة . «**يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفاً**»(٢) رحمة بهم من أن يتخبطوا في متاهات المبادىء التي جعلت من الانسان حقل تجارب .. فهل يتلقّى المسلم قرآنه بأدب العبد مع ربه العزيز الرحيم ..؟! .

«**لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون**»

فالغاية هي إنذار الناس جميعاً ، ويخص بالذكر منهم العرب فهم من ذرية اسماعيل ، ولم يكن لهم بعده من رسول .. ولئن كانت البداية منهم ، فإن هذا لا يعني أن الرسالة خاصة بهم .. «**قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا ..**» (٣).

«**فهم غافلون**» : والغفلة اكبر علة يُصاب بها الانسان فتتعطل حواسه .. يمر بآيات الله وكأنه لا يراها .. يلعب به أعداؤه ويدبّرون له المكائد ويوقعونه في المتاهات والظلمات وهو لا يشعر .. يُسرع نحو النار ولا يحس بأي خطر ..

«**لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون**» : هذا هو موقف المعرضين عن القرآن .. الذين حق عليهم حكم الله بالكفر والعقاب في الدنيا والآخرة . ولكن لِمَ حقّ القول عليهم بالكفر .. ؟!

---

(١) سورة تبارك ـ الآية ١٦ .
(٢) سورة النساء ـ الآية ٢٨ .
(٣) سورة الاعراف ـ الآية ١٥٨ .

ان هذه الآيات تتحدث عن عمل الله تعالى ، وكسب الانسان. مثل قوله تعالى :

« **والذينَ جاهدُوا فينا لنَهْدِيَنَّهمْ سُبُلَنا** »(١) ، « **ذلك جَزيناهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وإنّا لصادِقون** » (٢) .. والآيات هنا تصورهم ، وكأنهم مغلولون ، ممنوعون عن النظر والاهتداء الى الحق ، مسجونون خلف حواجز وسدود ، وعلى أعينهم غشاوة ، فلا يرون الحقائق .. وهل الاغلال التي تلحق بالانسان في الآخرة عقاباً من الله ، إلا نتيجة للأغلال التي حملها الانسان في الدنيا بملء إرادته .. ؟!

« **إنّا جَعَلْنا في أعْناقِهِمْ أغْلالاً ، فَهِيَ إلى الأذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحون**(٣) . **وَجَعَلْنا مِنْ بينِ أيْديهِمْ سَدّاً ، ومِنْ خَلْفِهِمْ سَداً ، فأغْشَيْناهُمْ ، فَهُم لا يُبصرون** » :

القيود والاغلال تستعبدهم ، فلا يستطيعون حراكا .. وما اكثرها من اغلال تكبل الناس .. الخضوع للعادات والتقاليد : « **وجدنا آباءَنا كذلك يَفْعلون** » ، فلا يتجرؤون على مخالفة ماألِفَهُ الناس من لباس ، وأساليب في الزواج ، والمعاملات ، وحتى عند الوفاة .. والتقيد بالموضات والتقاليع الى درجة الشعور بأنه ملزم بها لا يتجرأ على الانفلات منها .. والخضوع للهوى والشهوات من الاغلال .. كما قال جلال الدين الرومي :

---

(١) سورة العنكبوت ـ الآية ٦٩ .

(٢) سورة الانعام ـ الآية ١٤٦ . ولفهم الموضوع بجلاء ، يمكن الرجوع الى كتاب « حتى يغيروا ما بانفسهم » للاستاذ جودت سعيد ، فصل « في الآية تفييران ».

(٣) مقمحون : مرفوعو الرؤوس قسرا من الاغلال التي في أعناقهم ، فلا يتمكنون من رؤية شيء أمامهم .

اقطع القيد تحرّر يافتى يا أسيراً للهوى حتى متى . . ؟!

والذنوب أيضا من الاغلال . . ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(١) . . والاستكبار والترفع عن الاعتراف بالخطأ (أي ما يسميه علماء النفس : تنزيه الذات) من الاغلال التي تحرم النفس لذة التحرر من الذنوب ، والاخطاء ، والقدرة على الانطلاق نحو الاكتمال . .

إن النفس الانسانية تقع في الاخطاء والذنوب ، وتحتاج الى تفريغ حمولتها من هذه الاثقال والآصار . . والله تعالى يفتح باب التوبة والاستغفار ، ويعلّم المؤمن كيف يتحرر من خطئه بالاعتذار (بالتوبة) كي ينطلق من جديد هانئاً مستبشراً . . . ولكن أصحاب الاغلال هؤلاء محرومون من هذا الهناء . . قد خُدِعوا ببريق القيود والسلاسل الذهبية التي يعرضها عليهم شياطين الانس والجن ، فاندفعوا وراءها واهمين لا يقر لهم قرار ، ولا يهنأ لهم حال . . هؤلاء الذين عاشوا في الاغلال مُستَعبَدِين . . وربما كانوا يظنون انفسهم (متحررين) . . انظروا اليهم يرجعون الى ربهم في الآخرة ، يُجرجرون اغلالهم وتجرجرهم . . فيا لهول المصير . .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ

---

(١) سورة المطففين ـ الآية ١٤ .

اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ
اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ
فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

الا إن أغلال الآخرة لهي النتيجة العادلة لأغلال الدنيا التي اختاروها ، وكبّلوا أنفسهم بها . وقبل أن نمضي مع آيات السورة ، لا بد أن نلاحظ قول الله عن هؤلاء المعرضين بأنهم أكثرية **« لقدْ حقّ القولُ على أكثرِهِمْ ، فَهُمْ لا يؤمِنون »** .

وهذا يقتضي منا وقفة تأمل وتدبر .. وقد يكون الحديث عن سادة قريش ، فان أكثرهم قُتِل كافراً بأيدي المؤمنين ، ولكننا لا نستطيع أن نجعل الآية خاصة بهم ، لا سيّما وقد وردت في القرآن آيات أخرى تقرر ضلال الاكثرية .. وقد يُلاحظ المتأمل في التاريخ أن أكثرية البشر على مرّ العصور وحتى الآن كانت على ضلال .. فكم مضت على الناس أحقاب وأجيال ، وهم يظنون أن الارض منبسطة وليست كروية .. وكم تحكّمت الخرافة في عقول الغابرين ـ وما زالت تتحكم في كثير من المعاصرين ـ ألَمْ يعالجوا الامراض بالتمائم ... والازمات العائلية والاجتماعية بالسحر .. **« وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الارضِ يُضِلّوكَ عَن سبيلِ اللهِ .. »**(١) . فليست الأكثرية مقياساً يُعرَف به الحق من

---

(١) سورة الانعام ـ الآية ١١٦ .

الباطل .. ولا ينبغي للمسلم أن يغتر برأي الأكثرية(١) .. كما لا يجوز له أن يستبدّ برأيه ويُعرض عن آراء الآخرين بدعوى أن الاكثرية على ضلال ... وإنما القصد أن يبذل جهده لمعرفة الحق والتمسك به ، والنظر فيما عند الآخرين من الادلّة والبراهين .. وما أسهل أن تقبل كل شيء من الاكثرية .. أو ترفض كل شيء .. ولكن أن تعرف ما الذي يجب أن تقبله ، وما الذي يجب أن ترفضه ... ان هذا يحتاج الى جهد وجهاد .. فالمسلم يعرف أن رسوله ينهاه عن أن يكون إمّعة ، إنْ أحسنَ الناس أحْسنَ ، وإنْ أساؤوا أساء . ويعرف أيضاً ، أنّ دينه ينهاه عن مفارقة الجماعة .. ولكنه لا يعرف كيف يجمع بين النّهْيين في موقف متناسق ، بحيث يضع كل حكم في مكانه . ولكن ما السبب الذي يجعل الاكثرية على ضلال ..؟! وما الذي يجعلنا نعرف متى نقبل رأي الاكثرية ؟ ومتى نرفضه ..؟! .

يشخص القرآن الكريم سبب ضلال الاكثرية بأنه فقدان العلم:

« بَلْ أكْثَرُهمْ لا يعلمونَ الحقّ فهمْ مُعْرِضون . »(٢) ،

ويقول : **« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إنْ يَتّبِعُونَ إلاّ الظّنّ »(٣) .**

.. ولمعرفة متى يكون الموضوع ظَنّاً ؟ ومتى يصبح علماً ؟ نرجع الى ما سبق أن أشرنا اليه في صفحة (١٥) لنزيد الأمر وضوحاً ...

---

(١) ولهذا تعجز الامة المتخلفة عن الاستفادة من ميزات الديمقراطية لان القرارات التي تجمع عليها الاكثرية تفتقر الى العلم والى خبرة المختصين .

(٢) سورة الانبياء ـ الآية ٢٤ .

(٣) سورة النجم ـ الآية ٢٧ .

ينظر الانسان إلى الكون من حوله ـ اي الى الحقائق الخارجية ـ فتنطبع في ذهنه صورة معينة عن طبيعة ما يجري حوله .. وهذه الصورة الذهنية ، قد تكون خاطئة فتكون ظناً ، وقد تكون صحيحة فتصبح علماً (١) .. ولكن كيف نعرف أن الصورة الذهنية لدينا صارت علماً .. ؟! لكشف هذا الامر ، نستطيع أن نأتي بمثال : .. راقب الناس في الماضي حادثة الطيران .. وصفات الطيور ، وكيف تطير ؟.. وتشوّق الى الطيران ، لكن الصورة الذهنية عنده كانت ناقصة ، فلم يكن يعرف قانون الجاذبية وغيره من القوانين .. وظنّ انّ المسألة ، مسألة أجنحة وذيل فقط .. ولذا باءت محاولاته في الطيران بالفشل .. ولكن الاستمرار في التأمل والمحاولة ، وكشف المزيد من قوانين المادة (الآفاق) ، جعل الصورة الذهنية تقترب من الحقيقة الخارجية حتى طابقتها . وعندما استطاع الانسان ـ فعلا ـ الطيران في الجو ، كان ذلك الدليل القاطع على أن صورته الذهنية عن الطيران صارت علماً . وهكذا ، صار بإمكاننا أن نقول : **نختبر صحة مفاهيمنا عن الواقع ـ أي صورنا الذهنية ـ بالتسخير ، ورؤية العاقبة (النتيجة) ، والتنبؤ** .. فان استطعنا أن نفهم قانون شيء ما فهماً سليماً ، استطعنا أن نسخره .. واذا جاءت نتائج أمر ما (عاقبته بحسب المصطلح القرآني) سليمة وصحيحة ، كان فهمنا للأمر فهماً صحيحاً ، وصارت أفكارنا عنه علما .. واذا اعتمدنا فرضية

---

(١) للاستزادة ، يمكن الرجوع الى مقدمة الجزء الثاني من كتاب « الطب محراب الايمان » للدكتور خالص جلبي ، حيث نجد الحديث عن السنة والعلم ، وتمييز العقل والعلم عن الهوى والظن .

معينـــة في دراسة حادثة معينة ، وصدق تنبؤنا عنها ، اصبحت تلك الفرضية علماً . . .

إن الظنون ـ الصور الذهنية الخاطئة ـ هي مشكلة الاكثرية ولو علموا قوانين الحياة الانسانية ، وقوانين الكون ، لما أعرضوا عن القرآن . **فالازمة أزمة علم** ، ذلك ان الحق الذي قال الله عنـــه « **وبالحقِّ أنزلناهُ وبالحقِّ نزَل** »(١) ، لمْ يبلّغْ للناس ، ولم يَصِرْ علماً بالنسبة لهم . ولذا حثّ الله سبحانه وتعالى الناس على **دراسة قوانين الانسان والمادّة** ، ووعدهم بالمعونة والسند الذي يرونه رأيَ العين ذلك أنهم عندما يكشفون هذه القوانين ، يتبيّن لهم أن آيات الكتاب هي الحق . . « **سنُريهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِمْ حتّى يتَبَيَّن لَهُمْ أنَّهُ الحق . .** »(٢) فلعلاج المعرضين عن الحق ـ وهم الاكثرية غالباً ـ لابد أولاً من تعريفهم بآيات الله في الآفاق والانفس التي تشهد بصدق الكتاب .

وإذا عدنا الى السؤال الثاني الذي طرحناه : متى نقبل رأي الاكثرية ؟ ومتى نرفضه ؟! تذكّرنا قول السلف عليهم رحمة الله : « **اعرف الحق تعرف اهله** » ، كذلك ينبغي ان نلفت النظر وبعمق الى أن **منهج القرآن في تربية العقل : هو الموضوعية والنظر في الادلة والبراهين** . . « **ولا تَقْفُ ما لَيْس لكَ بهِ علمٌ** »(٣) .

---

(١) سورة الاسراء ـ الآية ١٠٥ .

(٢) سورة فصلت ـ الآية ٥٣ .

(٣) سورة الاسراء ـ الآية ٣٦ .

« **قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُم صادِقِينَ** » (١) أي هاتوا دليلكم الشرعي من الكتاب والسنة الصحيحة ... وهاتوا دليلكم العلمي من الآفاق والانفس ...

فيا أيها المؤمنون .. ويا أيتها المؤمنات .. **لا تَدَعوا تيار الاكثرية يقودكم معه الى هلاك الدنيا والآخرة** .. ولا تقولوا : اكلُ هؤلاء على ضلال ..؟! اكلُهم سيُحشرون الى جهنّم ؟!.. ان الله يحذركم .. ويهديكم طريق الفلاح بأن تنظروا في التاريخ نظرة عبرة، وتتأملوا مصير الاكثرية الضالة : «**أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِين ؟ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين ؟! كذلك نَفْعَل بالمجرمين . ويْلٌ يومَئِذٍ للمُكَذِّبين ..** »(٢) . واذكروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**يقول الله عز وجل : يا آدمُ ، فيقولُ : لبَّيكَ وَسَعْدَيْكَ والخيرُ في يديْكَ . قالَ : يقول : أخْرِجْ بَعْثَ النّار ، قال : وما بَعْثُ النار ؟ قال : مِنْ كُلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةٍ وتسعين . قال فذاك حين يَشيبُ الصغيرُ « وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى الناسَ سكارى وما هُم بِسكارى ولكِنّ عذاب اللهِ شديدٌ** »(٣) .

وعجيب أن نرى من يستخف بالامر ويرضى بالانسياق مع الناس .. حتى اذا جاء أمر الله ، وقف أمام ربه نادماً ساخطاً على نفسه يعضّ على يديه ـ لا على اصبعه فقط ـ من شدة الحسرة

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ١١١ .

(٢) سورة المرسلات ـ الآية ١٦ ـ ١٩ .

(٣) الحديث في مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري رقم ١٠٣ عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه .

والكمد . . « **يومَ يعَضُّ الظّالمُ على يديْه يقول : ياليتني اتّخذتُ معَ الرسول سبيلا . يا ويلَتى ليتني لم أتّخِذْ فلاناً خليلا . لقدْ أضلّني عنِ الذكرِ بعدَ اذْ جاءني وكانَ الشيطانُ للانسان خَذُولا** » (١) .

ولقد احتج أحدهم مرة فقال : كيف تتسع جهنم لكل الكفار على مر العصور ؟! فرد عليه الاستاذ ابو الاعلى المودودي في كتابه (نحن والحضارة الغربية) بما ملخصه : أليس عجيبا أن يشعر انسان بذلك ، وهو يرى بأم عينيه هذا الكون الواسع الارجاء الذي لا يدرك البصر له نهاية . . ؟! أيعجز الذي خلق هذا الكون عن تهيئة نار يتكردس فيها الكفار كلهم . . ؟!

بقي أن نتساءل : هل من المحتم أن تبقى الاكثرية على ضلال . . ؟! واقول : **ان كانت أكثرية البشرية حتى الآن على ضلال فان هذا لا يعني بقاءها على ذلك . . بل ان التقدم العلمي كفيل بأن يدخل الاكثرية في دين الله أفواجاً** . . وهذا ما أخبر به الله تعالى : « **هوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدى ودِيْنِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدين كلّهِ وكفى بالله شهيداً** » (٢) وبشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم : **لَيبلُغَنَّ هذا الأمْرُ ما بلَغَ اللّيل والنهارُ ولا يترُكُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبرٍ الاّ أدخلهُ الله هذا الدّينُ بِعِزِّ عزيزٍ أوْ بِذُلِّ ذليلٍ . عزّاً يُعز الله به الاسلامَ وذلّاً يذل به الكُفْرَ** » (٣) .

وقد تكون الآثار الدالة على عذاب الاكثرية الضالة تقدر النسبة المهتدية خلال عمر البشرية .

---

(١) سورة الفرقان ـ الآية ٢٧ ـ ٢٩ .
(٢) سورة الفتح ـ الآية ٢٨ .
(٣) المجلد الاول من سلسلة الاحاديث الصحيحة لناصر الدين الالباني .

(وسَواءٌ عليْهِم أأنذرتهُم أم لم تُنْذرهم لا يؤمنون) :

هؤلاء الذين قيدوا أنفسهم بالاغلال .. كيف يؤمنون ..؟!

هذه التي تقول : لا أريد الذهاب الى مجلس علم لأن الذي يتعلم يجب أن يطبق .. لقد سجنت نفسها حتى لا ترى الحق ولا تعرف الهدى .. فكيف تستفيد؟! .

وهذه التي تقول : زوجي يمنعني من تنفيذ أمر الله .. فهل اهدم بيتي ..؟! ورضي الله عن أم سليم بنت ملحان فقد عرفت أنه لا يحق لزوجها أن يمنعها من الحق ومن أن تتبع أمر الله .

وتلك الفتاة التي تقول : أمي .. وأبي .. ألَمْ يؤمن علي بن أبي طالب بهذا الدين ـ وكان طفلا ـ دون أن يستأذن أباه ؟! وهل غاب عنا موقف سعد بن أبي وقاص من أمه التي أرادت أن تمنعه من الاسلام ..؟!

هؤلاء وغيرهم لم يطيعوا أولياءهم في معصية ، ولم ينسوا في الوقت نفسه القيام بدور الاحسان للوالدين ومصاحبتهما في الدنيا بالمعروف .

وأخرى تقول : أأحرَمُ من آخر صيحات الموضة في الملابس والأحذية .. الله أكبر ..!! انها تفضل أن تحرم من حياة الامن في كنف الله تعالى .. ومن جنته ورضوانه .. من سلعة الله الغالية ..

هؤلاء الذين يتشبثون بأغلالهم .. كيف يتحررون ..؟!

ولكن هل يعني هذا أن نترك تذكيرهم وإنذارهم ..؟!

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفهم الآية على هذا الوجه واستمر ينذر ويبلغ فقد قال الله تعالى له : ((**فذكّر إنّما أنت مُذكّرٌ . لستَ عليْهِمْ بمُسيطر**))(١) .

---

(١) سورة الغاشية ـ الآية ٢١ ـ ٢٢ .

وانما كانت الآية تمسح عن قلبه الكريم الالم والخيبة ، لعدم استجابتهم ، وتطمئنه الى أنّ العلة في إعراضهم ليست من تقصيره في دعوتهم . وانما هي في أغلالهم .. وهكذا لا بد للداعية من اداء الواجب واستيعاب الوسائل المتاحة للتبليغ .. حتى نتبرّأ من التَّبِعَةِ أمام الله ((**وَإذْ قالت أمّةٌ منهم : لِمَ تَعِظونَ قوماً اللهُ مُهْلكُهمْ أو معذّبُهُم عذاباً شديداً ؟! قالوا : مَعْذِرةً الى ربكمْ ، ولعلهم يتّقونَ**))(١) .

واذا كان السبب الرئيسي في اعراض الاكثرية هو فقدان العلم .. فان التقدم العلمي وتعميمه بشتى الوسائل المتاحة يفتح آفاقاً جديدة للانقاذ ...

((**إنّما تُنْذِرُ من اتّبعَ الذِّكْرَ وخَشِيَ الرّحمنَ بالغيب**)):

ان الذين ينتفعون بالانذار يصفهم الله بصفتين :

١ ـ **اتباع الذِّكْرِ** : أي اتباع القرآن .. وسمي القرآن ذِكْراً لأنه يذكر الانسان بحقائق كبرى قد يعلمها ، ولكنه يحتاج الى من يذكره بها أثناء حياته اليومية .. ولذا يدرك المؤمن أن التلاوة اليومية في القرآن هي ضرورة حيوية له .

وكما قالت عائشة رضي الله عنها : (**يرحم اللهُ نساءَ المهاجرين الأُوَل لمّا أنزَل الله ((وَلْيضربْنَ بخُمرهنّ على جيوبهنّ)) شققْنَ مُروطَهُنّ فاختمرْنَ بها** . وفي رواية : **أخذن أزُرَهُنّ فشققْنها من قِبَلِ الحواشي فاختمرن بها**))(٢) .

وكثير من المسلمين الآن يتحرّون الحلال والحرام ، فاذا عرفوا ان الله أمر بهذا اسرعوا الى التنفيذ دون تردد .. هؤلاء أولى بالتذكير والانذار .

---

(١) سورة الاعراف ـ الآية ١٦٤ .

(٢) اخرجه البخاري وابو داود .

٢ ـ **خشية الرحمن بالغيب** : فاتباعهم للقرآن لا عن مصانعة أو نفاق أو تكسب وانما الدافع هو خشية الرحمن بالغيب .. هو الشعور برقابة الله والاندفاع الى أمره ولو لم يكن هناك أحد من الخلق يراه ..

ويذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أصنافاً من الذين يخشون ربهم بالغيب في حديثه الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه :

((سبعة" يُظِلُّهم اللهُ في ظلّهِ يوم لا ظلّ الاّ ظلُّـهُ : الامـام العادل . وشاب" نشأَ بعبادة الله ، ورَجُـل" قلْبُـهُ معلّق" في المساجدِ ، ورجُلانِ تحابّا في اللهِ ، اجْتمعا عليه وتفرّقا عليـهِ . ورَجل" دَعَتْهُ امرأَة" ذاتُ منْصبٍ وَجَمالٍ فقال : إنّي أخافُ اللهَ ، ورَجُل" تَصَدّقَ بصدَقَةٍ فأخْفاها حتّى لا تعْلمَ يمينُهُ ما تنفقُ شِماله ، ورجل" ذكرَ الله خالياً ففاضَتْ عيناهُ))(١) .

انه الايمان الذي ارتفع الى درجة الاحسان : ((أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك)) .

هذا الصنف هو الذي ينتفع بالانذار **(فبشّره بمغفرةٍ وأجرٍ كريمٍ)** ، عند ربهم الذي يحيي الموتى ويحشرهم ليعطيهم جزاء ما كسبت أيديهم .

(إنّا نحنُ نُحْيِي الموْتى ونكتُبُ ما قدّموا وآثارَهم) :

اما ما قدموا : فهي الاعمال التي قدموها رصيداً لأنفسهم .. فما هي آثارهم ؟ .. انه التسجيل الدقيق للخطى وآثار الأقدام والأعمال في الارض ..

عن أبي هريرة رضي الله عنه : (قرأ رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الحافظ المنذري ـ مختصر صحيح مسلم ـ رقم الحديث ٥٣٧ ص ١٤٧ ـ الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ ـ بيروت ـ دار العربية .

وسلم « **يومئذٍ تُحدِّثُ أخبارها** » ثم قال « **أتدرون ماأخبارُها؟**» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « **فإنّ أخبارَها أنْ تشْهدَ على كلِّ عبدٍ أوْ أمَةٍ بما عملَ على ظهرها تقول : عملتَ كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها** »)(١) .

« **وبكل خطوة تمشيها الى الصلاة صدقة** »(٢).

بل ان آثار الاعمال تشمل أكثر من ذلك .. انها تشمل كلّ من يتأسّى بأعمالهم ...

« **مَنْ سنَّ في الاسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ منْ عملَ بها بعدَهُ من غير أن ينقُصَ من أجورِهم شيءٌ . ومن سنَّ في الاسلام سُنَّةً سيِّئةً كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ من عمِل بها من بعده من غيرِ أنْ ينْقُصَ منْ أوزارهمْ شيءٌ** »(٣) .

« **وكلَّ شيْءٍ أحْصيناهُ في إمامٍ مُبينٍ** » : كل شيء محسوب بدقة متناهية . تصور أنك تتحرك ضمن أجهزة للتصوير ولاقطات للصوت تلتقط فيلماً مفصلا عن حركاتك وسكناتك وأقوالك وهمساتك ، بل إن الدقة في هذه الأجهزة تبلغ حدا لا تفوتها معه « **خائنةُ الأعينِ وما تُخفي الصدور** » الله أكبر .. هل جربنا أن نستحضر هذا الاحساس ...؟!

(**في إمامٍ مُبينٍ**) : قال المفسرون : هو الذي جمعت فيه أعمال البشر . أمّا كُنْهُ هذا الامام المبين ؟! أهُوَ كتابٌ مرقوم ؟! أم أفلام مصورة وشرائط مسجلة ؟! هذا من الغيب الذي لا نملك أن نقول فيه سوى : الله أعلم .

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « كلُّ سلامى مِنَ النّاسِ عليه صدقةٌ » متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

الفصل الثاني

قصّة أصحاب القرية

قال الله تعالى :

﴿١٢﴾ وَاضْرِبْ لَهُم
مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ
اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾
قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ
يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً
إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا
لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ
قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

* وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا
مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾
يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾
أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا
يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أصْحابَ القَرْيَةِ إذ جاءَهَاالمُرسلون):

اذكر لهم هذه القصة كمثال لعلهم يعتبرون ويُدركون خطورة موقفهم من القرآن . إن أمر القرآن خطير يترتب عليه فوز أو هلاك في الدارين فكيف يتهاونون ويتصرفون دون تمحيص ويحكمون بدون بَيِّنة ..؟!

من هم أصحاب القرية هؤلاء ؟ لم يذكر القرآن اسم القرية أو موضعها ، وهذا يدل على أن اسمها وموضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة .

(إذْ أرسلْنا إليْهِمُ اثنينِ فكذّبوهما فعَزَّزْنا بثالثٍ) :

أي دعمنا الرسولين برسول ثالث . فقالت الرسل الثلاثة لقومهم : **(إنّا إليكمْ مرسَلونَ)** . فكيف كان الرد من قومهم ؟ **(قالوا : ما أنتم إلاّ بَشَرٌ مثلُنا)** . وكثير من الناس يتصورون أن الرسول يجب أن يختلف عن البشر ، بحيث تحيط به الخوارق والاساطير والاوهام منذ ولادته(١) . حتى أن المشركين من قريش تعجبوا **((وقالوا : مالِ هذا الرسولِ يأكلُ الطّعامَ ويَمْشي في الاسواق ..))(٢)** ولكن الحكمة الالهية اقتضت أن تكون الرسل من البشر ، وأن تكون حياتهم هي القدوة العملية، فيكون في ذلك الدليل الواضح على قدرة البشر على تطبيق الدين.. وتقوم الحجة على الناس فلا يملكون عذراً في التخلف .

وكثيراً ما يكون الغرور هو السبب الاول في الاعراض عن الحق:

((ما هذا إلاّ بشَرٌ مثلُكمْ يريدُ أنْ يتَفَضّلَ عليْكمْ))(٣).

((ولَئِنْ أطَعْتُمْ بشَراً مِثلَكُم إنّكُمْ إذاً لَخاسِرونَ))(٤)

---

(١) والمسلمون في عصر انحطاطهم نسجوا الاساطير حول ولادة محمد صلى الله عليه وسلم وخلّفوا لنا في هذا نسيجا عجيبا ما زال عامة المسلمين يتهافتون عليه.

(٢) سورة الفرقان ـ الآية ٢٥ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ـ ٢٤ .

(٤) سورة المؤمنون ـ الآية ٣٤ .

فهو لا يريد أن يسلم لبشر مثله ولا أن يعترف له بميزة النبوة عليه.

((وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون)):

وهذا يدل على أنهم كانوا يؤمنون بالله وبأنه الرحمن ، ولكنهم آمنوا بالله خالقاً ولم يؤمنوا به حاكماً ومشرعاً ولم يوحدوه في العبادة والطاعة . . .

ويرد الرسل في ثقةٍ واطمئنان : **(قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين) : البلاغ الواضح وظيفتنا** ، ونحن نؤديها فلا ذنب لنا إن آمنتم أو أعرضتم . . ولكن هذا الثبات لا يعجب المستكبرين وبقاء الدعوة يزعجهم ويعكر عليهم انطلاقهم وراء الأهواء والمطامع . . فيلجأون الى التهديد والوعيد في محاولة يائسة لاسكات صوت الحق .

(قالوا : إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) . كما يقول المتفلتون في كل عصر للمصلحين . . إنا تشاءمنا منكم ما عندكم إلا التذكير بالعذاب والموت والهلاك .

ولقد قال عبد الله بن أبيّ بن سلول ـ قبل أن يعلن اسلامه ـ لمحمد صلى الله عليه وسلم عندما مرّ صلى الله عليه وسلم على دابة له بعبد الله في مجلس له مع أصحابه، فنزل وحيّاهم وجعل يحدثهم ويذكرهم . . فقال عبد الله : اجلس في بيتك فمن أتاك فحدثه ولا تأت إلينا فتؤذينا بغبار دابتك . . فقام عبد الله بن رواحة ـ وكان مؤمناً ـ فقال : بلى والله لتأتينا في مجالسنا وتحدثنا . وهنا ينطلق المكذبون في غيهم مهددين الرسل بالرجم بالحجارة وبالعذاب الأليم فكيف واجه الدعاة هذا التهديد ؟!

(قالوا : طائركم معكم) : مصيركم معكم وبأيديكم . .

فبحسب ما تختارون لأنفسكم من أعمال ستجدون نتائجها(١) فحين تختارون الكفر والعصيان فإن الشؤم سيلازمكم لأنكم زرعتم الشقاء فلا بد أن تحصدوه ..

(أإنْ ذُكّرْتُمْ) ؟! أهذا جزاء النصح والتذكير ..؟!

(بلْ أنتُمْ قومٌ مُسْرِفون) غارقون في التمتع .. مسرفون في الغفلة ..

وهكذا لم يتراجع الدعاة .. لم يدفعهم التهديد الى السكوت عن تبليغ الدعوة ولم يؤجلوا الموضوع الى وقت يكون فيه الظرف مناسبا أكثر .. بل استمروا يؤدون الامانة ويبلغون الرسالة . ولنترك لخيالنا العنان .. وننطلق وراء الآيات وهي تعرض أحداث القصة على مسرح التاريخ .. ففي هذه الاثناء .. وبينما الناس متجمعون حول الرسل في ساحة القرية يجادلونهم ويهددونهم .. ويدبرون طريقة للقضاء عليهم .. يظهر من جانب المسرح في هذا المشهد .. رجل قادم بسرعة من أقصى المدينة ..

مَنْ هذا الرجل ..؟! وماذا يريد ..؟! **(وجاءَ منْ أقصى المدينة رجل يسْعى ..)** رجل عادي .. ليس بذي جاه أو مكانة مرموقة بين الناس .. سمع الدعوة فاستجاب لها .. وعلم أن الناس قد اجتمعوا يتآمرون على قتل الرسل ، فلم يبق في بيته ويغلق عليه باب داره مستخفياً ويكتفي بأن يناجي ربّه هامساً : « اللهم ان هذا منكر لا نرضى به ولا نقوى على تغييره .. » . بل

---

(١) التطير : التشاؤم . وأُطلق ذلك عليه لأن العرب كانت تُطيّر الطير فإن اتجه يمينا تفاءلوا ، وان اتجه شمالا تشاءموا . وقد ألغى الاسلام التطير والتشاؤم لانه أوهام ووساوس لا علاقة لها بما يجري من الاحداث ، وانما المؤمن يجتهد بالقيام باسباب الخير ويتوكل على الله .

جاء من اقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة الناس ، ونصرة الرسل .. وهو يعلم أنه فرد واحد أمام أمواج الناس الثائرة الساخطة على هذه الدعوة ودعاتها .

ها هو يشق طريقه بين الناس ويتوسط الساحة فتتعلق الانظار به . ماذا يريد هذا الرجل ؟ اسمعوا له فلعل لديه حجة بليغة يقهر بها هؤلاء الدعاة أو لعله وجد الخطة الحازمة التي تريحكم من هؤلاء الكذابين . ويرتفع صوت الرجل رصيناً قوياً مفعماً بالحدب والحنان (**ياقَوْمِ**) ... فيصغي الجميع ..

(اتَّبعوا المُرسلينَ .. اتَّبِعوا مَنْ لا يسْألُكُمْ أجْراً) :

وإن أعظم دليل على صدق دعوتهم ، أنهم لم يطلبوا منكم أجراً .. بل ثبتوا أمام التهديد وتحملوا الأذى في سبيل تبليغ دعوتهم .

(وَهُمْ مُهْتَدون ..) وهذا هو الدليل الثاني : أنكم تعرفون ماضيهم وأخلاقهم وأعمالهم . وقد شهدتم لهم بالفضل والهداية ... فدعوتهم هي الهداية وقد طبقوها على أنفسهم واهتدوا بها قبل أن يدعوكم اليها .

(وَمالِيَ لا أعْبُدُ الَّذي فطَرَني ..) وكيف أؤمِن بالله خالقاً .. ثم لا أعبده ؟! ولا أومن به حاكماً ومشرعاً .. ؟! وإن هؤلاء الانبياء لم يطلبوا منا إلا أن نعبد الله الذي آمنا بأنه هو الرب الخالق ونطيع أمره ...

والجميل في دعوة هذا الرجل لقومه أنه يضع نفسه موضع النقد والمناقشة ولا يوجه النقد اليهم مباشرة .. فهو أسلوب يجمع بين الحب والشفقة على قومه وبين انتقاء الطريقة المثلى لتحريك عقولهم ومشاعرهم ..

(وَإِلَيْهِ تُرْجَعون) فكيف لا نعبده واليه الرجوع .. وعنده الحساب . **(أأتَّخِذُ من دونِه آلِهَةً ..؟!)** أأطيعُ غيرَهُ واخضع لأمرهم .. ؟ وهل يستطيعون نفعي أوْ ضَرّي .. أو حمايتي من غضب الله ان نزل بي ..؟ **(إنْ يُرِدْنِ الرَّحمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عنّي شفاعَتُهُمْ شيْئاً .. ولا يُنْقِذونِ ..)** لو فعلت هذا لأشركت بالله .. وكان مصيري الضياع والضلال الاكيد ..

(إني إذنْ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ ..)

وإلى هنا فالرجل قد تحاشى اثارتهم حتى لا تأخذهم العزة بالاثم ، ولكنه بعد هذا العرض الموضوعي المشفق .. يعلن ايمانه بالله بكل تصميم وثبات ، ويطلب منهم أن يسمعوا ويشهدوا على ذلك :

(إنّي آمنتُ بِرَبّكم فاسمعونِ ..) فهو ربكم الذي تفرون منه وتتحدّونه بإيذاء رسله .. وهنا نفاجأ بإسدال ستار مسرح التاريخ .. وبالاضواء تقفز قفزة بعيدة المدى نحو الاعالي . وفي لحظة وقبل أن نسترد أنفاسنا التي تعلقت بمصير هذا الرجل وسط هذا الموج المتلاطم من الغوغائية .. تُسلَّطُ الاضواء الساطعة مرة أخرى على مشهد فريد في الملأ الاعلى . هاهو الرجل يظهر مرة أخرى وسط موكب نوراني مهيب ... يقدم له ألوانا من التأهيل والترحيب ..

فلا نملك الا ان ندهش ونتساءل بأسىً .. ياويح قومه ..! أتراهمْ قتلوه .؟ أهكذا كان جزاء النصح والاحسان .؟! لك الله ايها الرجل .. وما أقسى هذه الغصّة التي شَعرتَ بها من نكرانهم للجميل حين انقضّوا عليك فقتلوك .. لا لِشيء إلا لأنك كنت تدعوهم مشفقاً أن يتأملوا ويفكروا بمصيرهم ويسرعوا للنجاة

.. ونصحو من آلامنا على نداء علوي كريم يتوجه الى هذاالشهيد: **(قيْل ادخُلِ الجنّة ..)** فيدخل محاطاً بآيات التبجيل والتكريم .. وما أن يقع بصره على هذا النعيم الذي لم تر الأعين ، ولم تسمع الآذان بمثله ، ولم يستطع خيال الانسان الجموح أن يحلم به(١) حتى تطفر الدموع من عينيه ويهتف قائلاً : **(يالَيْتَ قَوْمي يعلمون بما غفرَ لي ربّي وجعَلني مِنَ المُكْرَمِيْن ..)** الله أكبر .. انه قلب المؤمن الكبير .. يحنو على الناس ويتألم لحالهم ولو داسو عليه .. لَيْتَهُم يرون جنة الله وتكريمه إذن لأسرعوا اليه نادمين..

وكلما ازداد الانسان علما ومعرفة ، ازدادت قدرته على تطهير قلبه من الكراهية والاحقاد ، وصار يشفق على من يجهل الحق ويعذره ويتمنى له الهداية ولو آذاه .. ألم يقل ٌ طاغور : اللهم علمني أن أكره الشر لا الاشرار .. ألَمْ يقل عيسى عليه السلام : « أَحِبّوا أعداءكُم وبارِكُوا لاعِنِيكُمْ . » (٢)، « صَلّوا لِأَجلِ الّذينَ يُسيئون إِلَيكُمْ » .

وكاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يُهلِكُ نفسه حزناً على قومه وإعراضهم حتى قال الله تعالى له : **((فلعلّك باخِعٌ نفْسكَ على آثارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤمِنوا بِهذا الحديثِ أسَفاً))(٣). لقد كان الانبياء صلوات الله عليهم يفتحون القلب بالحب..وينظرون الى الناس نظرة الطبيب المشفق الى المرضى ..** فهو يتغاضى عن نزقهم واذاهم ويعذرهم .. كانوا يواجهون الاذية والتنكيل بقلب كبير ضارع الى الله **((اللهم اهْدِ قومي فإنّهم لا يعلمون))** .

---

(١) اشارة الى الحديث القدسي : « اعددتُ لعبادي مالا عين" رات ولا اذُن" سمعت ولا خطر على قلب بشر ... » .

(٢) اصحاح ٦ رقم ٢٨ .

(٣) سورة الكهف ـ الآية ٦ .

سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« هل أتى عليك يوم" كان أشدّ عليك من يومِ أُحُدٍ ؟ قال : مـا لقيتُ من قومك كان أشدّ منهُ يوم العقبةِ . اذْ عرضتُ نفسي على ابنِ عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يُجِبْني الى مـا أردت(١) فانطلقتُ وأنا مهموم" على وجهي .. فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتْني فنظرْت فاذا فيها جبريلُ عليه السلام فناداني فقال: انّ الله قد سمعَ قول قومكَ لكَ وما ردّوا عليك وقد بعث لك مَلَكَ الجبال لتأمُره بما شئت فيهم . ثم ناداني مَلَكُ الجبالِ فسلّم عليّ ثم قال : يا محمد قد بعثني الله ، إنّ الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال قد بعثني اليك ربك لتأمرني ما شئت . إن شئتَ تَطْبق عليهم الاخشبين ؟ ـ جبلين حول مكة ـ فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً »(٢) .**

وقبل أن نتابع الآيات التي تختم القصة وتعلق عليها .. أشعر بحاجة الى مزيد من التأمل والتدبر حول موقف هذا الرجل المؤمن الذي جاء يسعى لنصرة الدعوة والدعاة . لو تصرف انسان في عصرنا هذا كما تصرف هذا المؤمن ، لتحدث الناس بنقده . ماذا أنتج بهذه الطريقة ؟!. لم يؤثر عليهم ولم يغير الاوضاع ..؟! لو أنه لم يتسرع ويتهور .. وسكت وانتظر ، وتلطف في الحديث مع بعض من يثق بهم ، وحاول التأثير عليهم .. وكانت له معهم لقاءات

---

(١) وذلك بعد موت خديجة ـ رضي الله عنها ـ وأبي طالب، حين ذهب الرسول الى ثقيف يعرض عليهم الاسلام فأبوا وأغروا به سفهاءهم فرموه بالحجارة حتى سالت الدماء من قدميه .. ولم يستطع أن يرجع ويدخل مكة الا في جوار أحد سادتها المطعم بن عـدي .

(٢) ثبت في الصحيحين من طريق عبد الله بن وهب .

سرية صحح لهم فيها عقيدتهم .. ثم دبروا خطة للقضاء على رؤوس الكفر الذين يصدون الناس عن الايمان ، واستعملوا قوة السلاح في القضاء عليهم واستلام مراكزهم .. وبهذه الطريقة يتسلمون زمام الامر في القرية ويوجهون الناس الى الايمان .. اما هذاالموقف فانه غير مجد وغير حكيم .. بل انه القى بنفسه الى التهلكة بدون مقابل ..!

وانا الآن لا ادعي انني سأتناول هذه الافكار الشائعة لأبين خطأها بالدليل والبرهانمن جميعالجوانب : الشرعيةـوالاجتماعية ـ والتاريخية .. لكنني اقدم بعض الملاحظات حولها ويجب على المسلم أن يتأمل الموضوع ويدرسه أكثر ..

١ ـ القرآن قد ضرب لنا مثلاً بهذه القصة ، وعقّب عليها **بدخول هذا المؤمن الى الجنة** دون نقد أو عتاب .. بل على العكس **بالاكرام والثناء على موقفه** .. وهذا يوحي بأنه كان على صواب وطريقته سليمة ، يضعها القرآن أمام أعيننا لتكون القدوة لنا . ولو كان هناك خطأ لنقده . فقد نقد القرآن بعض تصرفات الصحابة كما في سورة آل عمران في التعقيب على غزوة أحد . بل عاتب محمدا صلى الله عليه وسلم . في « **عبس وتولى** »

٢ ـ ان الواجب الذي يُطالَبُ به المؤمن في كل ظرف هو التبليغ للناس كافة ، والجهر بالحق ولو سكت لاستحق العذاب « انّ الذين يكتمون ما أنزَلْنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئكَ يلعنُهمُ اللهُ ويلعنُهمُ اللاّعنون »(١) .

وحين تسكت عن الحق ، فقد نصرت الباطل لأنك جعلته في

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٥٩ .

حالة اجماع دون معارضة .. ولو اعترض صوت واحد فبيّن الحق لما كان اجماع على الباطل . فسكوتك عن الحق ينصر الباطل(١).

٣ ـ يُسأل الانسان هل بَلَّغ كأحسن ما يستطيع ؟ ولا يُسأل هل استفادوا واهتدوا « **فذكّرْ إنّما أنتَ مُذكّر" . لستَ عليهم بِمُسَيْطِرٍ .** »(٢) .

٤ ـ لا يكون الايمان بفكرة إيماناً صادقاً ، إذا كانت هذه الفكرة قد دخلت اليه بطريق القوة .. بل يكون الخوف من القوة هو الدافع .. ويكفي أن نتذكر في هذا المجال النماذج التي رأيناها تنفر من الاسلام وتتفلت منه لأن رب الاسرة قد فرضه عليهم فرضا. ... والقرآن يوضح نقطة الانطلاق التي تمثل مفتاح التغيير « **إنّ الله لا يُغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم** » (٣) .

٥ ـ يقول عباس محمود العقاد ـ رحمه الله ـ في نقد هذه الفكرة : « الذين يملكون الذرة اليوم يعجزون عن نشر فكرتهم بواسطة القوة . **فهل ظن المسلم في محله ان ظن أن عجزه عن تبليغ فكرته انما هو لأنه لا يملك السلاح ؟!.** »(٤) .

٦ ـ ولو قارنّا بين موقفين : حين يُقتل المؤمن لأنه يقول ربّيَ الله ، وحين يُقتل لأنه يدبر خطة يقتل فيها عددا من الناس كي يصل الى الحكم .. فاننا سنرى بوضوح أن قتل المؤمن الاول

---

(١) رحم الله الاستاذ مصطفى الاعسر حين قال : اذا كان أعداء الاسلام قد سجنوا المسلم فان المسلم حين يسكت عن تبليغ دعوته يسجن الاسلام .. فاينا اشد جرما ؟.

(٢) سورة الغاشية ـ الآية ٢١ ـ ٢٢ .

(٣) سورة الرعد ـ الآية ١١ .

(٤) العقاد ، عباس محمود ـ ما يقال عن الاسلام ، ص ١٨٧ .

مثير للآخرين لأنه في نظر الجميع ـ حتى قاتليه ـ بريء، اذ لا تهمة له سوى أنه يقول : ربي الله . « **أتقتلون رجلاً أنْ يقولَ ربيَ الله** »(١) . أما الآخر فإن قتله قد يبدو طبيعياً .

لقد كانت كلمة « **ربّي الله** » كافية لاشعار فرعون بأنه عاجز عن قتل موسى ، وأنه لو قتله لسبب ثورة عارمة في أوساط الناس ضد حكمه .

وكلنا نعرف قصة الغلام المؤمن الذي كان قتله سبباً لإيمان قومه كلهم(٢) وكانت محنة أصحاب الاخدود الذين لم يكن لهم ذنب سوى الايمان بالله . . .

« **وما نَقَموا منهمْ إلاّ أنْ يؤمنوا بالله العزيزِ الحميدِ** »(٣) وكانت العاقبة كما قررها التاريخ ونص عليها القرآن « **قُتِلَ أصحابُ الأُخدود** » .

٧ ـ الدعاة الى الله ، كلهم متفقون بالهدف وهو : رد الناس الى عبادة الله ، لكن الخلاف على الطريقة . وسلامة الهدف لاتنجي المؤمن من النتائج السيئة للطريقة الخاطئة اذ أن العمل الانساني يحتاج الى شرطين لابد من توفرهما .

١ً ـ تحديد الاجابة عن : **لماذا أعمل ؟** أي تحديد الهدف كي لا يكون العمل صبيانياً أو جنونياً .

٢ً ـ تحديد الاجابة عن **كيف أصِلُ الى هذا الهدف** كي يخرج

---

(١) سورة غافر ـ الآية ٢٨ .

(٢) رياض الصالحين ، باب الصبر ، الحديث السادس منه .

(٣) سورة البروج ـ الآية ٨ .

العمل من التخبط والفوضى . وان الخطأ في هذا الجانب قد يؤدي الى نتائج تضر بالهدف أو تؤخر أو تعوق الوصول اليه .

٨ ـ خطة الانبياء وطريقتهم هي الجهر بالحق ، والدعوة اليه بشكل سلمي ، والصبر على أذية الناس حتى يأتي أمر الله فيهلك الظالمين وينصر المؤمنين . والذي يستعرض قصص الانبياء في القرآن يلاحظ هذا ، وهكذا كانت خطة محمد صلى الله عليه وسلم ، دعا الى الحق وجهر به ، وتحمل الاذى هو وأصحابه رضوان الله عليهم في مكة حتى آمن اهل المدينة وطلبوا منه أن يحكم فيهم بشرع الله ، وبعد ذلك أذن الله في القتال لحماية هذا المجتمع الوليد من بطش المشركين(١) .

٩ ـ كيف نقول ماذا أنتج بهذا الاسلوب ؟ والقرآن يعقب على ذلك بإهلاك الكافرين « **وما أنزلنا على قومِه من بعدِه من جندٍ من السماء وما كنا منزلين ، انْ كانت إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون** » . وكيف نقول اهلك نفسه بدون مقابل . . !؟ والله يقول « **قيلَ ادخلِ الجنّةَ** » والرسول صلى الله عليه وسلم يقول « **انّ منْ أعظمِ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عندَ سلطانٍ جائرٍ** »(٢) . بل ان الله قال عن الشهداء « **ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل اللهأمواتاً بلْ أحياءٌ عندَ ربهم يرزقون** » (٣) . وان من حياتهم القدرة على التأثير في حياة الناس ، ولو تأملنا كم اثّرت قصة هذا الرجل الذي جاء يسعى لنصرة دعوة الله في نفوس المؤمنين عبر الاجيال ـ وما

---

(١) الرجاء مراجعة ما كتبه الاستاذ جودت سعيد في كتابه ـ مذهب ابن آدم الاول ـ تحت عنوان نماذج من عمل الانبياء ص ٣٥ ـ الطبعة الاولى .

(٢) رواه أبو داوود والترمذي عن أبي سعيد .

(٣) سورة آل عمران ـ الآية ١٦٩ .

زالت تؤثر وستؤثر طالما ان هناك قرآناً يتلى على الارض ـ لشعرنا بالعجز عن احصاء الآثار العظيمة التي نجمت عن موقفه المشرّف هـذا .

ان العالم الاسلامي يعاني من التشويش في النظـر والفهـم ، وهذا الموضوع يشكل أزمة فكرية يعاني منها المسلمون ، لأنهـم استسلموا فيه لنظراتهم الذاتية ، ولم يمحّصوا ويعيدوا النظر في تأمله ؛ ومع أننا نجد من رواد الفكر الاسلامي المعاصرين ، من اهتم بهذا الموضوع ، وحاول تسليط النور عليه ، كي تتوضح الرؤيـة ويتخلص المسلم من الظلام والتيه فيـه .. ـ منهم أبـو الاعـلى المودودي ، ومالك بن نبي ـ الا أن الموضوع لم يوضع حتى الآن على بساط البحث كما ينبغي .. وما زلنا نعاني من المآسي الناتجة عن سوء الفهم ، والتي يتسبب بها أناس يخدمون الاسلام بحسن نية ولكن مع عدم معرفة بطريق الصواب . أشعر أن الشباب المسلم ينبغي أن يعيد السمع والنظر في هذا النداء الذي وجهه الاستاذ أبو الاعلى المودودي كوصية يقدمها للعاملين للاسلام في مسـجد الدهلوي بمكة المكرمة بعنوان « واجب الشباب المسلم اليـوم » :

« لا تقوموا ابدا بعمل جمعيات سرية لتحقيق الاهداف ، ولا تلجؤوا الى استعمال العنف والقوة والسلاح لتغيير الاوضاع ؛ لأن هذه أيضا من الاستعجال ومحاولة الوصول الى الهدف بأقصر طريق . وهذا الأمر أسوأ عاقبة وأكثر ضررا من كل صورة أخرى . ان الانقلاب الصحيح السليم قد حصل في الماضي وسيحصل في المستقبل بجمعيات علنية يكون نشاطها واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار لكل انسان ، فعليكم أن تنشروا دعوتكم بطريق علني وتقوموا باصلاح قلوب الناس وعقولهم في أوسع نطاق وتسخروا

الناس لفاياتكم بأسلحة من الخلق القويم والفضيلة ، وان تواجهوا كل ما يقابلكم من المحن والشدائد مواجهة الابطال ، فهذا هو الطريق الذي سيمكننا من عمل انقلاب عميق الجذور راسخ الاسس قوي الدعائم كبير النفع في حق هذه الامة المسكينة ولا يمكن لأي قوة معادية أن تقف في وجهه . واقول ان هذه الامة لا يصلح آخرها الا بما صلح به أولها ... » .

ومن المفيد تأمل ما ذكره الاستاذ جودت سعيد في كتابه ـ مذهب ابن آدم ـ تحت عنوان : « **تنبيه هام ، وتمييز ضروري : بين من يعمل لبناء المجتمع الاسلامي ومن يمثله :**

« .. فقد يقول قائل : أين انت من آيات الجهاد والقتال في القرآن . هل تريد أن تؤمن ببعض الكتاب فقط ؟ .. أم هل تريد أن تنسخ آيات القتال من القرآن ؟ .

أقول واسارع في القول : انني لا أريد أن انسخ الكتاب ولا أن اعطّل آيات الجهاد والقتال حاشا لله أن أفعل ذلك ، الا انني أريد أن أفرّق بين حالين : **١ ـ حال من يدعو الى إنشاء المجتمع الاسلامي أو إصلاحه والحيلولة دون فساده .**

٢ ـ وبين حال من يمثّل المجتمع الاسلامي المتميز الذي أسلم وخضع للاسلام .

إن واجب الصنف الاول فقط هو الذي ابحثه ، بينما انت تريد أن تكلّفني واجب الصنف الثاني . ولأجل أن يتوضح لك هذا بصورة ادق ، اضرب مثلا يقرّب الأمر ويزيده وضوحاً :

إن الله يأمر بقطع يد السارق ، فيا أيها المسلم الذي يعيش في مجتمع لم يخضع لأمر الله هل ترى واجباً عليك أن تقبض على

السارق وتقطع يده ؟ وهل ان لم تفعل ذلك تكون قد أبطلت آيات الله ونسختها ؟ .

إن الذي يقطع يد السارق هو الذي يمثل المجتمع المسلم . فكيف تريد أن تقطع يد السارق الذي يعيش في مجتمع لم يخضع لأحكام الاسلام ، أو أنه تحلل من أحكام الاسلام ؟ هل اقتنعت الآن بأنك لست معطلاً لآيات الله إن لم تقطع يد هذا السارق ؟ وإن كان الأمر كذلك في حدود الله ، فكيف ظنك بأمر الجهاد الذي يعتبر من أعظم الأمور ؟ هل تظن انه ينبغي أن تنفّذه ؟ هل أعطاك الله هذا الحق في هذا الوضع ؟

هل تعتقد أن الله قد فرض عليك هذا الواجب ، واجب القتال في مجتمع لم يخضع للاسلام ، بينما تعجز عن الامر الذي أوجبه عليك الله في كل الحالات الا وهو : **قول الحق حيثما كنت لا تخاف في الله لومة لائم ؟! إن قول الحق هو الذي أُمرنا به ، وبه يتكوّن المجتمع الاسلامي . فعندما** يتكون المجتمع الاسلامي ويدعوك من وُكِلَ إليه أمر الجهاد ، وتخلّفت ، تكون قد تخلّيت عن فرض عظيم من فرائض الاسلام .

ينتج مما سبق أنه إذا اجتمع بعض الأفراد سراً وأصدروا حكم الاعدام .. وأعطوا لأنفسهم سلطة تنفيذ مثل هذه الاحكام ... فانهم بذلك لا يخدمون الاسلام ولا يؤيدوه ، لأن الاسلام لا يعطي أمر إصدار مثل هذا الحكم وتنفيذه حتى في القصاص من القاتل المعتدي لأي فرد عادي في المجتمع الاسلامي ، ولا لبعض الأفراد الذين لم يُسلّم لهم المجتمع بذلك . فكيف يخوّل المسلم لنفسه تنفيذ مثل هذا الامر الخطير في استباحة الدماء في أوضاع فيها كثير من الالتباس والغموض بحيث تقدم بهذا ما يسوغ للآخرين إلصاقك

بتهم الارهابية والى غير ما هناك من تهم ... وإني لا اتّهم هؤلاء في حسن نواياهم وصدق اخلاصهم وحبهم للاسلام ، وإنما ارى أن مثل هذا الخطأ ناشيء عن نقص في الادراك الفني ـ أي فقه القضية ـ للموضوع أكثر من أن يكون مأتاه من الاعواز الخلقي»(١) ثم تتابع الآيات فتذكر في ختام القصة :

(ومَا أنْزَلْنا على قَوْمِه مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ منَ السَّماء ومَا كُنَّا مُنْزِلينَ) : لقد كانوا أهْوَنَ على الله من أن ينزل عليهم جندا من السماء تتولى عقابهم .. فما هي الا صيحة واحدة ، حتى قضي الامر ، فخمدت الانفاس وسكتت الاصوات ... **(إنْ كانَتْ إلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فإذا هُمْ خامِدون)** : وبعد هذه الضربة العنيفة يلتفت الى الناس وينادي عليهم نداء الحسرة ... **(ياحَسرةً على العبادِ .. ما يأتيهِم منْ رسولٍ إلاّ كانوا بهِ يستهزِئونَ)** : يا حسرة عليهم .. تتاح لهم فرصة النجاة فيُعرضون عنها .. ويفتح الله لهم أبواب الرحمة والجنة ، فيكذّبون ويستهزئون .. تعرض عليهم سعادة الدنيا والآخرة ، فيرفضون ويفضلون على ذلك حياة النكد وحريق النار .. لقد تعوّدوا على التمرّغ في الوحل فلا يدركون قيمة التحليق في الأجواء العليا .. لقد ألفوا التخبط في الظلمات حتى بات يؤذيهم النور ..

إن الديدان تفضل حياة المستنقع الآسن .. والحشرات لا تحوم الا حول مجاري المياه ومواضع القمامة .. فيا للحسرة والأسف حين تمسخ صورة الانسان الكريم الذي كرمه الله بالعقل

---

(١) سعيد جودت ، مذهب ابن آدم الاول ، ص ٢٧ ، الطبعة الاولى ، دمشق ١٩٦٦ .

وأسجد له ملائكته .. فيصبح مُعْرضاً عن مجالس العلم والطهر ويرمي نفسه في مواضع القمامة ..

ولقد تحدث مالك بن نبي رحمه الله عن شباب العالم الاسلامي الذين يذهبون الى البلدان المتحضرة طلبا للعلم .. ان أكثرهم بدلا من أن يذهب الى المصانع والمعامل ليتعلم كيف تبنى الحضارة .. يذهب الى أماكن غير لائقة حيث تلقى نفايات وأوساخ الحضارة(١).

ولا عجب في ذلك.. فان هذا هو مبلغهم من العلم. **((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا ولمْ يُرِدْ الاّ الحياةَ الدُّنيا . ذلكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ ..))**(٢) . **تلك هي العلة .. نقص العلم . إنهم لم يكشفوا بَعْدُ أن الشرائع التي جاءت بها الرسل ، تتفق مع قوانين حياة الانسان الفردية والاجتماعية ، وأن الاعراض عنها يؤدي الى دمار الفرد والمجتمع ، ولا عبرة في ذلك ببعض النتائج العاجلة الخادعة ، وانما العبرة بما هو خير وأبقى ..**

والقرآن حذّر من الانخداع بالعاجلة وكرر اشارة **((حَبِطَتْ أعْمالُهُمْ))** كي ينتبه الانسان فلا يخدع بالنتائج السريعة (٣) لكن هؤلاء لم يصل علمهم بَعْدُ الى هذا المستوى .. وما زالوا يعانون من قصر النظر فلا يرون الا ما هو أمامهم مباشرة .

((ألمْ يَرَوْا كم أهْلكنا قبْلَهُمْ منَ القُرونِ أنَّهم إليْهم لا يرجِعونَ)) ..

ألم ينظروا الى الوراء .. ألم يدرسوا تاريخ الامم كيف نهضت

---

(١) راجع كتاب في مهب المعركة : مقال الافكار الميتة والافكار القاتلة .

(٢) سورة النجم ـ الآية ٢٩ .

(٣) يقال : حبطت الناقة : اذا أكلت نباتا ساما فانها تنتفخ ـ ويظن صاحبها انها سمنت ـ ثم تهلك .

وكيف سقطت وهلكت ..؟! ألم يعتبروا من مصير الكذبين في الماضي ..؟! فكيف يندفعون في الطريق التي أهلكت من قبلهم في غفلة وغرور .؟!! . القرآن يستنكر علينا أنه ليست لدينا رؤية تاريخية .. ولعل كثيرا منّا قرأواطّلع على كثير من أحداث التاريخ، ولكن هذا ليس كافياً للوصول الى الرؤية التاريخية التي يريدها القرآن . **انه يريد منا رؤية علمية تبدأ ـ ككل علم ـ من ملاحظة الاحداث ، ثم ترتقي الى البحث في أسبابها كي نصل الى قانون النهضة والهلاك .. ومن ثَمّ نقوم بأسباب النهضة ونتجنب أسباب الهلاك .**

إن القرآن يطالبنا بدراسة التاريخ ، ويلح على ضرورة هذا العلم ، فلا تكاد تخلو سورة من الاشارة والامر بذلك .. ولا بد للمجتمع ان كان حريصا على النمو والتقدم من أن يوجد فيه العدد الكافي ممن يتخصصون في علم التاريخ كي يحفظوا توازن المجتمع ، ويكون لهم هذا النظر القادر على التأمل في الماضي والتنبؤ للمستقبل .. والتخطيط للامة كي تصل الى مستقبل أفضل .

« **أنّهُم اليهمْ لا يرجِعون** » : فان كان الهالكون لا يرجعون الى الدنيا مرة أخرى .. فانهم لن يُتركوا ولن يفلتوا من المحاسبة على ما جنته أيديهم ..

« **وإنْ كُلٌّ لمّا جميعٌ لدينا مُحضَرون** » .. سَيَمْثلون جميعاً بين يدي الله فيفصل بينهم وينالون جزاءهم ... وعندها مَنْ وَجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنّ الانفسه.

الفصل الثالث

آیات من الکون

قال الله تعالى :

وَءَايَةٌ لَّهُمُ

الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾
لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ
الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ
قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي
لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾
وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ
لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

وكأن الآيات هنا تقطع السبيل على المكذبين الذين أعرضوا عن الرسل واستنكروا فكرة البعث والحساب .. فتقول لهم انكم تكذبون بالله ورسله ، وكل ما في الوجود يحدثكم عن الله ويشهد بقدرته ..

« **وآية" لهم الارضُ الميتةُ احْيَيْناها** » الارض التي تبدو في الشتاء جرداء هامدة ، لا اثر للحياة فيها .. حتى اذا اكتنفتها

رحمة الله وجادت عليها السماء بالماء ، اذا بها تهتز وتتفتح الحياة في جنباتها مخضرّة ، وتجود على الناس بأنواع الرزق وألوان الجمال . . **انها اللفة الرائعة التي تسبح بها الارض لله . . « سَبَّح للهِ ما في السَّمواتِ والارْضِ »(١) . .**

« وأخْرجْنا منها حبّاً فَمِنه يأكلونَ . وجَعَلنا فيها جنّاتٍ منْ نَخيلٍ وأعْنابٍ وفجَّرْنا فيْها مِنَ العُيونِ » : هل تأملت هذه اللوحة الفنية الرائعة التي رسمتها يد الله سبحانه وتعالى في هذه الارض من حولك . . إنها نضارة الحياة . . تلك المعجزة التي لاتملك يد الانسان أن تبثها مهما برعت في النحت والرسم والتصوير . .

كل هذا من أجلك أيها الانسان **« لِيَأكلوا مِنْ ثَمَرِه »** و **« ما أحدٌ أصْبَرَ على أذىً يَسْمعُه منَ الله عزّ وجلّ . إنهم يَجعلون له نِدّاً ، ويجْعلون له ولَداً ، وهو مع ذلك يرْزقهم ويُعافيهِمْ ويعْطيهِمْ . »(٢) .**

« وما عملته أيديهم » . وتعني ما هنا : اما نافية ، فيكون المعنى : ليست أيديهم هي التي صنعته . واما اسم موصول بمعنى الذي . . ليأكلوا من الذي عملته أيديهم . . والله هو الذي منحهم القدرة على العمل وسخر لهم السموات والارض . **(أفَلايشكرون)؟!**

« سُبْحانَ الَّذي خلَقَ الازْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الارضُ ومِنْ أنفُسِهِمْ ومما لا يَعلمون » : انما قاعدة التزاوج التي خلق الله الكون عليها . . **« ومِنْ كلّ شيءٍ خلقْنا زوْجيْنِ لعلّكم تذكّرونَ »(٣) .**

---

(١) سورة الحديد ـ الآية ٥٧ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري ـ رقم الحديث ـ ١٩٢٨ .

(٣) سورة الذاريات ـ الآية ٤٩ .

(**مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ**) : في عالم النبات .

(**وَمِنْ أنْفُسِهِمْ**) : في عالم الانسان .

(**وَمِمَّا لا يَعْلَمون**) : في عوالم أخرى لم يحيطوا بها علما .. يكشفها الانسان كلما ازداد علماً . ألَمْ يكشفوا التزاوج في (الذرة) التي هي أصغر جزء من المادة ؟.

ان القانون الواحد الذي ينظم كل ما في الكون ، يوحي بوحدة الخالق المبدع لهذا الكون ..

« **وآيةٌ لهُم اللَّيلُ نسلخُ مِنْهُ النَّهارَ** » : يصور الله النهار متلبساً بالليل ثم ينزع الله النهار من الليل تدريجياً . ودوران الارض هو السبب الذي جعله الله لانسلاخ النور عن الارض وحلول الظلام ، (**فإذا هُم مُظلمون**) .

وكلنا نرى تعاقب الليل والنهار ، ونعرف أنه ناتج عن دوران الارض حول محورها أمام الشمس . ولكن هل فكر مُدَرِّس مادة الجغرافيا في ابراز هذه الاحداث الكونية مرتبطة بقدرة الله المبدعة التي أحكمت نظام كل شيء في هذا الكون ...؟ . « **إنَّا كلَّ شيءٍ خلقْناهُ بِقَدَرٍ** »(١) ، هل حاول أن يلفت نظر تلاميذه الى موضع الآية ــ وهي الدليل والعلامة التي توضع على الطريق يسترشد بها الناس ــ في ذلك ..؟ انه لم يفعل .. فلا تعجب اذا انقطع بنا طريق العلم وعجزنا عن المتابعة فقد بترنا العلم وكبّلناه حتى لا يتابع طريقه الى الحقيقة الكبرى .. وهكذا أو جدنا عقدة الشعور بالانفصال بل والتناقض بين العلم والدين(٢) .

---

(١) سورة القمر ــ الاية ٤٩ .

(٢) ولو تركنا العلم يتابع طريقه لانطبق على الدين . يقول مالك بن نبي في كتابه مشكلة الافكار في العالم الاسلامي : ــ ان العلم بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقا ــ .

(والشمسُ تجري لِمُستقرٍّ لها ذلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ)

« هل الشمس ثابتة ؟ لا .. دل الرصد على أن الشمس متنقلة بين النجوم بحركة مستقيمة ، وسرعتها قدرت بـ ٣٠ كيلو متر في الثانية وهي متجهة نحو أحد النجوم (الجاثي على ركبتيه) مصحوبة بسياراتها »(١) . وللشمس حركة أخرى .. انها حركة دورانها حول مركز مجرتنا التي يسميها الفلكيون (درب التبّان) والذي تبعد عنه نحو ٢٥ الف سنة ضوئية والمدة اللازمة لدوران الشمس ـ وملايين النجوم الموجودة في مجرتنا ـ حول مركز المجرة دورة واحدة ، تقارب ٢٠٠ مليون سنة .... « ولما كان عمر مجرتنا نحو ٣ بلايين سنة ، وجدنا أن شمسنا وأسرتها من السيارات قد دارت الى الآن نحواً من ٢٠ دورة كاملة فقط »(٢) .

وعلى هذا فالشمس تجري مسرعة نحو القرار الذي ستستقر فيه والذي حدده لها رب العالمين ، ليكون نهاية لحياتنا الارضية .. ولكن أين هذا المستقر ؟ أهو (الجاثي على ركبتيه) ؟ الله أعلم .. فهو العزيز الذي لا يجرؤ ولا يستطيع مخلوق أن ينفلت من قانونه .. العليم الذي أحكم التقدير والتدبير . **(والقمرَ قدّرناهُ منازِلَ)** جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الايام . (والقمر تابع للارض يدور حولها بسرعة ٢٢٧٨ ميل في الساعة . أي « كيلو متر واحد في الثانية » .. ويدور القمر حول نفسه أيضا كل ٢٨ يوما دورة واحدة ويستمد نوره وحرارته من الشمس .. واشكال

---

(١) ابو خليل ، شوقي ، الانسان بين العلم والدين ، ص ٥٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

القمر الذي نراه بها مرجعها الى أن الشمس تنير نصفه دوما ، والنصف الآخر مظلم . والوجه المنير المضيء الذي يقابل الشمس دوماً هو في اتجاه الشمس . ففي « المحاق » يكون القمر بيننا وبين الشمس فالوجه المنير مقابل للشمس ، والمظلم نحونا فلا نراه . ثم يبدأ في الارتفاع فنرى جزءا بسيطا من القسم المضيء ، فنرى هلالا .. ثم اذا ارتفع أكثر نرى نصفاً ـ نصف القسم المضي ـ ؛ وعندما نرى القمر بدرا ، تكون الارض بين الشمس والقمر، فالوجه المضيء يقابلنا ، والمظلم في الخلف اي نرى الوجه المضيء كله والوجه المظلم عكسنا تماما)(١) .

(**حتّى عادَ كالعُرْجونِ القديمِ**) العرجون : هو العَذَق الذي يكون فيه الرطب من النخلة . والآية ، تشبه القمر حين يضمحل ويصبح هلالا رفيعا بالعذق العتيق كيف يصبح يابسا متقوساً . وكل هذا التقدير لتجميل حياة الانسان وتنظيمها ؛ ولكي يدرك الانسان قيمة الوقت والتوقيت ، ((**يسألونَكَ عنِ الأهِلّةِ ؟ قلْ هيَ مَواقيتُ للنّاسِ والحج**))(٢) وقد سأل الصحابة عن الهلال : ما باله يكون هلالا ثم ينمو ويكتمل ثم .. ؟ فلم يذكر الله لهم الكيفية .. لأن هذا الكتاب ليس كتاب فلك بل كتاب هداية، وأمرهم في مواطن أخرى بالسير والنظر في هذا الكون لكشف قوانينه وتسخيره . ولكنه أجابهم عن الغاية والهدف ، لأنه هام ولا يمكن تأجيل الاهتمام به .. فالغاية هي التوقيت .. **والوقت هو أحد**

---

(١) ابو شوقي ، خليل ، الانسان بين العلم والدين ، ص ص ٩٨ ، ٩٩ بتصرف

(٢) سورة البقرة ـ الآية ١٨٨ . يرجى مراجعة أسباب نزول هذه الآية .

عناصر الحضارة الثلاثة بحسب رأي مالك بن نبي رحمه الله(١) ، والوقت هو أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة **« لا تزولُ قدَما عبْدٍ يومَ القيامة حتى يُسألَ عنْ عمرِه فيم أفناه .. »(٢) .**

ولكن هل يدرك المسلم المتخلف الآن قيمة الوقت ..؟! .

« ان من الصعب أن يسمع شعب ثرثار الصوت الصامت لخطى الوقت الهارب »(٣) .

الساعات والايام تهرب منا ونغفل عنها ونهملها .. لكنها تعود لتشن حرباً علينا .. لأن أعداءنا استفادوا منها وحققوا فيها مزيداً من التقدم العلمي الذي يمكّنهم من تسخيرنا واستغلالنا فإلى متى تتضخم الخسارة ..؟! .

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثواني

(لا الشّمسُ ينبغِي لها أنْ تُدرِكَ القمرَ ولا اللّيلُ سابِقُ النّهارِ ، وكُلٌّ في فَلَكٍ يسْبحون) : إنها دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الاجرام الهائلة .. فلكل كوكب أو نجم أو قمر أو مجرّة .. مدار خاص لا يمكن أن يتعداه .. تأمل أيها الانسان ما يقوله علماء الفلك : .. ان عمر مجرتنا نحو ثلاثة بلايين سنة .. وعبر هذا الزمان الشاسع الابعاد كان كل جرم يعرف مكانه ومساره والى أين ينبغي له أن يتجه .. ألا تشعر بالتضاؤل والخشوع وأنت تنظر الى هذه القبة الزرقاء وملايين النجوم فيها متناثرة سابحة في هـذا

---

(١) يقول مالك في كتبه : الحضارة = انسان + تراب + وقت ، بشرط تدخل عنصر مركب وهو الفكرة الدينية .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح . راجع رياض الصالحين للنووي ـ باب الخوف ـ .

(٣) ابن نبي ، مالك ـ شروط النهضة ، ص ١٩١ ، القاهرة ، مكتبة دار العروبة ، الطبعة الثانية ١٩٦١ .

الفضاء الذي لا تبلغ العين مداه ...؟!.. « **فارْجِعِ البصَرَ هل ترى منْ فُطورٍ ؟. ثمَّ ارجِعِ البَصرَ كرَّتيْنِ ينْقلِبْ إليْكَ البصرُ خاسِئاً وهوَ حسِيْرٌ** »(١) .

(وآيةٌ لهمْ أنَّا حَملنا ذُرِّيَّتهُمْ في الفُلْكِ المَشْحونِ .) :

آية لهم على قدرة الله .. تسخير البحر ليحمل السفن .. ولعل الآية هنا تشير إلى سفينة نوح ونعمة الله على المؤمنين حين نجاهم بها . ولم يكن على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم ، ويذكّر الناس بهذه النعمة **(حملنا ذريتهم)** أي آباءهم (٢) ، **(في الفلك المشحون)** أي في السفينة المملوءة من الامتعة والحيوانات .. **(وخَلقْنا لهُمْ منْ مِثْلهِ ما يَركبون)** ذكروا في التفاسير : أنها الابل والانعام ، وهذه السفن التي تحملهم بقدرة الله وقوانينه التي تحكم الكون . وتبقى الآية أعم من ذلك فهي تشير الى كل ما يتوصل اليه الانسان من وسائل للركوب والنقل من الدراجة البسيطة الى سفن الفضاء والمجال مفتوح لكشف الجديد . « **والخيلَ والبِغالَ والحميرَ لِتركبوها وزِيْنَةً ويَخلقُ مالا تَعْلمون** »(٣) . **(وإنْ نشأْ نُغْرِقْهُمْ) :**

هؤلاء الذين يُحملون في السفن بقدرة الله .. انهم في قبضة الله مهما بلغوا من العلم والقدرة على التسخير .. أوَلم تغرق الباخرة الشهيرة « أتلانتيك » في رحلتها الاولى ، وقد صُممت تصميماً دقيقاً حتى اغترّ بها أصحابها .. « **ولا يَغُرَّنَّكم باللهِ الغَرورِ** »(٤)

---

(١) سورة الملك ـ الآية ٣ ـ ٤ ، فطور : شقوق أو خلل . حسير : كليل .

(٢) ذكر هذا المعنى الحافظ بن كثير في تفسيره للآية .

(٣) سورة النحل ـ الآية ٨ .

(٤) سورة لقمان ـ الآية ٣٣ .

(**فَلا صَرِيخَ لهمْ**) فلا مغيث لهم .. ومن يستطع أن يغيثهم من أمر الله ..؟! (**ولا هُم يُنقَذون**) .. (**إلاّ رحمةً مِنّا**) . والذين ركبوا البحار أو الجو يحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها العاصم والملجأ الذي يلجأ اليه المتأرجحون على الماء وبين أجواء السماء . إنها رحمة الله وحكمته التي تمسك بالآجال حتى يقضي الكتاب أجله وينتهي دور الانسان على الارض (**ومَتاعاً إلى حِيْن**) ومتاع الدنيا موقوت لابد أن ينتهي في حين معين .. والآخرة هي دار الخلود ، ومع كل هذه الآيات الباهرة المبثوثة في جنبات الكون تجد أناساً يتخذون مواقف عجيبة .. فيعرضون عن الآيات .. ويبخلون .. ويكذبون .

* * *

الفصل الرابع

مِن مَواقف الكفّار

قال الله تعالى :

وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ
مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ
مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾

(وإذا قيلَ لهمُ اتقوا ما بينَ أيديكم ..) :

اتقوا ما بين أيديكم من الآيات أن تكون حجة عليكم في الآخرة اتقوا ما بين أيديكم من القوانين والسنن أن تخالفوها ، فتحصلوا على عواقبها الوخيمة في الدنيا والآخرة .

(وما خلفكم) : اتقوا أن يصيبكم ما أصاب الامم الماضية . **« قدْ خلَتْ من قبلِكمْ سنَنٌ ، فسيروا في الارضِ فانظروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذّبين »** ؟(١) .

فاعتبروا يا أولي الابصار من الاحداث التي قد جرت ورايتموها أو قرأتم عنها في التاريخ . واذا حذروا من موجبات العذاب والغضب ـ وهي محيطة بهم ان لم ينتبهوا لها وقعوا فيها ـ أعرضوا .. وتذكرنا الآية بسؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي ابن كعب عن التقوى ، فقال : « أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ » قال : بلى . قال فما عملت ؟ قال : « شمّرتُ واجتهدتُ » . قال :

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٣٧ .

« فذلك التقوى »(١) . فلعمري كيف يمشي الانسان على أرض علم أنها مزروعة بالالغام من جميع الجهات .. ألم يتعهد الشيطان بزرع الالغام للانسان ((**لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين**))(٢) .

إذا ذكّروا ونصحوا بإشفاق ممن يرجو لهم الرحمة والنجاة .. أعرضوا وابتعدوا .

(وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين) إنهم لا يريدون أن يروا الآيات .. وشغلتهم العاجلة ببريقها عن تتبع آيات الله في الكون وكشف سننه والاستفادة منها .. إنهم معرضون عن حقائق الكون الكبرى التي فيها يتحدد مصيرهم .. متهالكون لاهثون وراء السراب الذي لن يزيدهم الا ظمأ وضنكا .. ((**ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى ..**)) (٣) .

(وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ..؟! إن أنتم إلاّ في ضلال مبين) .

إنه البخل .. والتحايل لتبرير البخل .. فأنت تسمع حتى الآن من يقول عن الفقراء : لو شاء الله لأطعمهم .. ولم علم فيهم

---

(١) ذكره الحافظ بن كثير في تفسيره للآية ((هدى للمتقين)) من اول سورة البقرة .

(٢) سورة الاعراف ـ الآية ١٧ .

(٣) سورة طه ـ الآية ١٢٣ .

خيراً لأعطاهم .. هكذا قسم الله لنا ولهم . فهل نحن أكرم من الله حتى نعطيهم ...؟!

وهذا الكلام كله يدل على سوء فهم لدين الله ومشيئته . ويدفعنا الى تسجيل بعض الملاحظات :

١ ـ **الله هو الرازق للجميع** أودع في الارض أنواع الرزق . **وقضت مشيئته في الحالة العامة أن لا ينال الناس أرزاقهم الا بالكد والعمل ((وأنْ ليْس للإنسانِ إلاّ ما سَعى))(١) .**

((منْ كانَ يُريدُ العاجلةَ عَجّلْنا لهُ فيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُريدُ ... ومَنْ أراد الآخرةَ وسَعى لَها سعْيها وهوَ مؤمن فأولئك كان سعْيُهم مشكوراً . كُلاّ نُمِدّ هؤلاء وهؤلاءِ منْ عطاءِ ربّك وما كانَ عطاءُ ربّك مَحْظورا))(٢).

٢ ـ **وعلى هذا لا يكون الفقر أو الغنى دليلا قطعياً على رضى الله أو سخطه** ، وإنما الامر يمشي وفق أسباب أخرى في الحالة العامة .. فقد ترجع الاسباب الى الفرد حين يقعد عن السعي في طلب الرزق ...

وقد ترجع الى المجتمع حين ينحرف عن تحقيق العدل والمساواة فتنتشر فيه المحسوبيات ولا يفتح فرص العمل أمام الجميع ، أو يعجز عن تقديم الضمانات المادية والمعنوية اللازمة لأبنائه .. عندها لا يُقدّر المرء بقيمته الحقيقية ، وتختل الموازين الصحيحة في نصيب الناس من الرزق . وقد تخفى هذه العلة على الكثير فيبكون حظهم ، ومنهم من يسخط على القدر وينجرف

---

(١) سورة النجم ـ الآية ٣٩ .

(٢) سورة الاسراء ـ الآية ٢٠ .

في الكفر « ان هذا الخلط في هذه الامور هو الذي جعل قول المعري كالمثل السائر :

كمْ عالِمٍ عالِـمٍ تلقاهُ مفْتقِراً وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقا

هذا الذي ترك الأفهـام حائرة وصَيَّرَ العالِمَ النِحْرِيرَ زنديقاً

ولا شك أن تركيب المجتمع ، وغنى فئة وافتقار أخرى ، أمور خاضعة لقوانين وسنن اجتماعيـة ، اذا خفيت عـن عيني الانسان ، اشتبهت عليه الامور وتداخلت في ذهنـه المشـكلات .. وظن أن القضية فوضى لا ضابط لها ، ولا عدل فيها ، ولا تصـدر عن حكيم عليم ، فيكون ذلك سببا لهرطقة وزندقة من نظنه عالما نحريرا »(١) .

٣ ـ الاسلام حارب الكسل وغرس في النفوس قداسة العمل « ما أكـلَ أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكلَ من عملِ يدِه . وإنّ نبيّ الله داود كان يأكل من عملِ يده »(٢) ، وجعل السعي في طلب الرزق لِيَعُفَّ نفسه أو اهله بمرتبة الجهاد في سبيل الله . **« .. وإنْ كان خرجَ على نفسهِ لِيَعُفَّها فهوَ في سبيل الله »(٣).**

٤ ـ والاسلام بمبادئه قد ألغى الطبقية ، ومحا الفوارق بين الناس : « إنّ أكْرَمكم عندَ اللهِ أتْقاكمْ »(٤) .

فالفُرَص مفتوحة أمام الجميع للعمل الكريم والضمانات المادية والمعنوية تبذلها الدولة المسلمة للجميع .

---

(١) سعيد جودت ، حتى يغيروا ما بانفسهم ، دمشق ، دار الثقافة للجميع ، ص ٢٠ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٨ م .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه مسلم .

(٤) سورة الحجرات ـ الآية ٢٣ .

٥ ـ يبقى بعد ذلك في المجتمع افراد تقصر عليهم الارزاق لأسباب من العجز عن العمل (شيخوخة مرض ـ عاهات ـ اصابات عمل ـ وفاة المعيل ..) ، **لذا يعالج الاسلام هذه الازمات بفرض الانفاق على الغني** (الزكاة ـ زكاة الفطر ـ الكفارات ـ صدقة التطوع .) تطهيرا لنفسه من الشح والانانية ، وتزكية لنفسه حتى ترتفع الى مستوى الاخوة الانسانية والقدرة على تحسس آلام الآخرين ، وإنقاذاً للفقير من عوزه .. وحماية للمجتمع من الحقد الطبقي والهزات الاجتماعية الدموية ..(١) .

٦ ـ وهذا الانفاق تتولى الدولة الاشراف على قسم منه « الزكاة » فتجمع المال من الاغنياء ، وتقدم به الضمانات المادية للمحتاجين .. ويبقى القسم الآخر عطاء من الغني لأخيه الفقير يسعفه به خفية فيفيض القلبان بنداوة الاخوة وتتوثق الروابط الاجتماعية بمعنى التكافل .

---

(١) في كتاب ـ شهر في روسيا ـ وصف المؤلف أحمد بهاء الدين ماشاهده في الكريملن من آثار القياصرة وترفهم ما يفوق أي تصور . ويقول في النهاية « قاعات فيها ما لا يمكن أن يقدر بمال .. يخرج الناس منها مدهوشين مبهورين .. أما أنا فقد خرجت متغيظا .. ان ما لا يقدر بمال هنا هو الجهد الانساني المبذول في هذه الاشياء .. أليس شيئا رهيبا يثير الفزع أن نتصور أي عبث أنفق فيه آلاف العمال المهرة ومئات العقول البشرية كفايتهم حين كان الحرمان الذي لا آخر له يملأ الارض .؟! انه عبث باهظ الثمن ، فقد كان يمتص الجهد والفكر والثراء من البلاد كلها لكي يوفر لعشرات أو مئات من الناس هذا الزخرف الفارغ ويترك الملايين محرومين من العمل النافع والقوت الضروري والمعرفة البسيطة » هذا هو الذي خلق الحقد الطبقي وانتج الثورة الروسية التي وُصفت بانها حمراء لكثرة ما أريق فيها من الدماء .

« مثلُ المؤمنينَ في توادّهمْ وتراحمِهم وتعاطفهمْ مثلُ الجسدِ اذا اشتكى منه عضو" تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحمّى »(١) .

والأغنياء يحملون مسؤولية كبرى تجاه هؤلاء الذين يحال بينهم وبين الكسب الشريف .. لأنهم يملكون المال والمركز اللذين يساعدان على حل هذه الأزمة . إنهم يستطيعون إنشاء المؤسسات التي تعلم أصحاب العاهات كي يمارسوا أعمالا تضمن لهم الكسب الشريف ، وتجعل منهم أعضاء نافعين في المجتمع فتخلصهم من المهانة والشعور بالنقص ، وتساعد في دفع عجلة المجتمع الى الامام. من أجل ذلك يندّد القرآن بالمترفين والبخلاء من الاغنياء : **« وأصحابُ الشمال ما أصحابُ الشمال في سَمومٍ وحميم ، وظِلٍ من يَحْموم . لا باردٍ ولا كريم . إنّهم كانوا قبْل ذلك مُتْرَفينَ »(٢) .**

٧ ـ **وتربية الضمير لها الاولوية في هذا المجال** ، إذ انها الاساس الذي ترتكز عليه التنظيمات الاجتماعية . ولقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل مشكلة الفقير الى قلوب أصحابه بشكل عجيب .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : **(بينما نحنُ في سفَرٍ معَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءَ رجل" على راحلةٍ لهُ ، قال : فجعلَ يصرفُ بصَرهُ يميناًوشمالا ـ اي يلتفت متعرّضا لشيءٍ يدفعُ به حاجته ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري . رقم الحديث ١٧٧٤ .

(٢) سورة الواقعة ـ الآية ٤١ ـ ٤٥ .

« منْ كان معه فضلُ ظهرٍ فلْيَعُدْ به على من لا ظَهْرَ لـه . ومن كان له فضلُ زادٍ فلْيَعُدْ به على من لا زاد له » ، **قـال : فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في فضل)(١)** . ومهما سمعنا عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية ، فان نماذج المجتمع المسلم تحمل شعاعاً أقوى يصور وَمضـات الضمير الحي الذي شُحِنَ بالمحبة الاخوية ومراقبة الله تعالى .

عن أبي موسى الاشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **« إنَّ الاشعريين إذا ارْمَلُوا(٢) في الغزوِ أوْ قـلَّ طَعـام عيالِهـم بالمدينة ، جَمعوا ما كَانَ عِنْدَهم في ثوْبٍ واحدٍ ثمّ اقْتَسموهُ بينهم في إناء واحدٍ بالسَّوِيةِ ، فهمْ مني وأنا منهم »(٣)** .

٨ ـ **ومع ذلك فإن الله تعالى لا يفضل طبقة على طبقة بحسب الفقر والغنى بل انه يجعل من الفقر والغنى امتحانا يختبر بـه النفوس** .. فالفقير ينجح بصبره وسعيه للكسب الشريف ، والغني ينجح بشكره وقيامه بواجبه تجاه اخوانه . حتى أن الله تعالـى يقول في حديث قدسي : **« يا ابْنَ آدم اسْتَطْعَمْتُكَ فلمْ تُطعِمني قال : يارب كيفَ أطْعِمُكَ وأنتَ ربّ العالمين ؟! قال : أما علمتَ أنَّهُ اسْتطْعَمَكَ عبْدي فلانٌ فلمْ تطعِمْهُ ، أما علمتَ أنك لوْ أطعمتهُ لوَجدتَ ذلكَ عنْدي .»(٤)** .

٩ ـ **ولا بد من التمييز بين الاسلام والمسلمين** : فالاسلام دين الله المنزه عن الخطأ ، ولكن المسلمين بشر يخطئون ويصيبون .. وقد تمر بهم فترات من العطالة والخمول بسبب اهمالهـم للعلـم

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري . رقم الحديث ١٠٦٦ .
(٢) أرملوا : فرغ زادهم أو قارب الفراغ .
(٣) متفق عليه .
(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة .

والعمل .. وإن صورة المتسول التي لا تكاد يخلو منها حي في عالمنا الاسلامي لهي الدليل الواضح على فقدان التفاعل بين المسلم ودينه .. حتى حكي أن متسولاً كان يمشي في أحد الازقة وهو يقول : اين الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ؟ فرد عليه أحدهم : ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافاً .

(ويَقولونَ متى هذا الوعدُ انْ كنتم صادِقين) يسألون عن موعد الساعة مستهزئين مكذبين .. فيأتي الجواب : **« وما يُدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها . والذين آمنوا مُشفقونَ منها ويَعْلمون أنَّها الحقّ . ألا إنَّ الَّذين يُمارون في السَّاعة لَفي ضَلالٍ بعيدٍ »**(١) ... « والشمس في هذا التفاعل تفقد ما وزنه ٤ مليون طن في كل ثانية أو ٣٦٠٠٠٠٠ مليون طن في كل يوم ، فهل من عقل يتصور هذه الطاقة المخيفة ؟ وفقدان الشمس لهذا الوزن الكبير يومياً ، الا يوجب قلق الانسان »(٢) بل الا نشاهد في كل يوم اناساً قد حان اجلهم وقامت ساعتهم .؟!.

ويأتي رد الله تعالى على سؤالهم المنكر هذا بعرض مشهد من مشاهد القيامة ، يرون فيه كيف يكون .. لا متى يكون . اذ لا مصلحة للانسان في أن يعرف متى . ولو علم الله أن هذا يفيده لأعلمه .. ولكن الذي يفيده ان يعرف كيف يكون الهول في هذا اليوم .. وكيف يكون الحساب ويتم الجزاء .. حتى يشعر بضرورة الاستعداد .. والسورة تعرض هذا في مشهد حي زاخر بالحركة .

---

(١) سورة الشورى ـ الآية ١٧ ـ ١٨

(٢) ابو خليل ، شوقي . الانسان بين العلم والدين ، ص ص ٤٧ ـ ٤٨ .

الفصل الخامس

الموت والقيامة

قال الله تعالى : مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾
قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ
الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا
مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ
وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم
مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا
الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ
تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ
أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾
وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ
يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا
مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا
يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

(مايَنظرونَ إلاّ صَيْحَةً واحِدةً تأخذُهمْ وهُم يخِصّمون)
يقول الحافظ ابن كثير في تفسير للآية : « **ما ينظرون الا صيحة واحدة** » : وهذه والله أعلم نفخة الفَزَعِ . ينفخ في الصُّور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم .. ثم يكون بعد هذا نفخة الصَّعْقِ التي تموت بها الأحياء كلّهم ما عدا الحي القيوم . ثم بعد ذلك نفخة البعث » . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **كَيْفَ أنْعَمُ** ـ اي كيف اطيب عيشاً ـ **وصاحبُ القَرْنِ قدِ التَقمَ القرْنَ** (وضع فاه عليه) **واستمع الأذن متى يؤمر بالنفخِ فينفخ** » . فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : « **قولوا حسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل** » . والقَرن هو : الصُّور الذي قال الله تعالى عنه : « **ونُفِخَ في الصُّور** » كذا فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

(فَلا يستَطيعونَ توصيةً وَلا الى أهْلِهمْ يَرجِعون) :

وَ بِمَ يُوصون ؟! الامر أهَمُّ من ذلك ..إنهم يتحسرون على ما فات ، ويتمنون الرجعة ويُظهرون التوبة والندم ولكن بعد فوات الأوان .. **حتّى اذا جاءَ أحَدَهُمُ الموتُ قال : رَبِّ ارْجِعونِ . لعَلّي أعملُ صالحاً فيما تركْتُ .. كلاّ . إنّها كَلِمَةٌ هوَ قائلها وَمِنْ ورائهمْ برزخٌ الى يومِ يُبْعثُونَ** » (٢) .

(ونُفخَ في الصُّورِ فإذا هُمْ منَ الاجْداثِ الى ربِّهم ينْسِلون):

هذه النفخة الثالثة على حد قول ابن كثير رحمه الله ... والله

---

(١) ذكر هذا الكلام النووي في رياض الصالحين باب الخوف . وقال عنه : رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٩٩ ـ ١٠٠ .

أعلم . . المهم أنها النفخة التي ينتفض الناس بها من قبورهم ويمضون سراعاً مدهوشين مذعورين .

ويشبّه الله تعالى حركة خروجهم من الأجداث . . بحركة نَسْلِ الخيط وسحبه من القماش ، كيف يخرج طرفه من ثنايا القماش سريعاً بعد أن كان خافياً . ويتساءلون مذعورين . . .

(قالوا يا وَيلَنا منْ بعثَنا من مرْقدِنا ..؟!) ثم يدركون ويتذكرون الحقيقة الكبرى التي كانوا يكذبون بها **(هذا ما وَعَد الرّحمنُ وصدَقَ المُرسلون)** . أو أن المؤمنين . . أو الملائكة تذكرهم بهذه الحقيقة وترد على تساؤلهم **((من بعثنا من مرقدنا))** بهذا الجواب . ويذكر الله بهذا الموقف على أنه الرحمن . وكأنها استغاثة عفوية تصدر من أفواه العباد برحمة الله في هذا الموقف الرهيب .

(إنْ كانتْ إلاّ صيْحةً واحدةً فإذا همْ جميعٌ لدينا منْحْضَرونَ) :

تلك هي الصيحة الاخيرة التي تحشرهم . ويصبحون فيها حاضرين على أرض المحشر خاشعين أمام ربهم للحساب . يترقبون كلمة الفصل التي تحدد مصيرهم بسكون رهيب **((وخشَعَتِ الاصواتُ للرّحمن فلا تَسْمَع الاّ هَمْسا))** (١) وهنا يأتي القرار العلويّ الذي يعلن على الجميع طبيعة الحساب والجزاء :

(فاليوْمَ لا تُظْلَمُ نفْسٌ شَيْئاً ولا تُجزَوْن إلاّ ما كُنتمْ تَعْملونَ) :

---

(١) سورة طه ـ الآية ١٠٨ .

لك الله أيها الانسان ، كم تعبت على الارض ؟. وكم آلمك الجحود والنكران ؟ .. وكم أضناك البحث عن العدل ..؟ وكم أوجعك فقدان التقدير في الدنيا لما تقوم به ..؟ أيها الجنود المجهولون الذين لم تبصركم عين التاريخ ، لأنها لا ترى إلاّ آخر درجات السلم .. أيتها الارواح البريئة الطاهرة التي أزهقت ظلماً وبهتاناً ... أيها المستكبرون .. كم زيفتم الحياة الدنيا وكم تطاولتم .. وكم ركعت لكم الناس مقهورة .. وكم خرست في وجوهكم الالسنة مرغمة ..!! .

الله أكبر .. هذا هو اليوم الذي فيه تفضحون ..

اسمعوا أيها الناس .. إنكم اليوم لا تبخسون شيئاً ولا تظلمون فتيلا .. إنكم اليوم في عالم جديد فريد .. أمام الله العادل الذي لا يفوته مثقال الذرة من العمل « **إنّ اللهَ لا يظلِمُ مِثْقالَ ذَرّةٍ ، وإنْ تكُ حَسَنَةً يُضاعِفها ويُؤْتِ من لَدُنْهُ أجْراً عَظِيْماً** »(١) . كل هذا يحدث في سرعة خاطفة بعد سؤالهم عن الساعة .. وتسلط الانوار بعدها على أصحاب الجنة ، وقد اجتازوا أرض المحشر وهم ناعمون فاكهون في الجنة ، وكأن الله يعفيهم من هول هذا الموقف ، ويعجل بهم الى الجنة طاوياً موقف الحساب معهم .. (**إنّ أصْحابَ الجَنّةِ اليَوْمَ في شُغُلٍ فاكِهونَ**) .. انهم مشغولون عن كل هذا العناء .. لا شأن لهم بما يعاني الآخرون من هول وكرب .. انهم فاكهون فرحون ...

---

(١) النساء ـ الآية ٤٠

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ..) والأرائك هي السرر تحت الحجال(١). **(لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ)** لهم كل ما يطلبون وكل ما يحلمون به .. لقد رجعوا إلى الله بعد شقاء الدنيا فأعطاهم ثمرة جهادهم وصبرهم .. إنهم على الأرائك .. وادعون.. فلا تعب ولا نصب بعد الآن، ولاموت ولا عذاب .. **((أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ، إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ؟ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ، لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ))(٢)** . وفي الحديث الشريف : **((يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صِبْغَةً فِي الجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لا وَاللهِ يَارَبِّ مَا مَرَّ بِي مِنْ بُؤْسٍ قَطُّ وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ .))** (٣) .

وفوق كل هذا النعيم ، التأهيل والتكريم من الله تعالى **(سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)** إنها تحية من الله اليكم يا أهل الجنة .. فهل بعد هذا التكريم من تكريم ؟ ! وتعود الآيات لِتَسَلَّطَ الضوء من جديد على أرض المحشر .. فما زال الآخرون هناك يعانون من هول الموقف ما يعانون .. ويدوي صوت الملك الجبار موبخاً محقراً .. **(وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا المُجْرِمُونَ)** تَمَيَّزوا وانعزلوا عن المؤمنين بعيداً . تميزوا بوجوهكم الكالحة المسودة خزياً ، واظهروا مكشوفين مفضوحين تحملون أوزاركم

---

(١) الحجال : مفردها حجلة وهي بيت للعروس يزين بالثياب والاسرة والستور . (مختار الصحاح) .

(٢) سورة الصافات ، الآية ٥٨ ـ ٦١

(٣) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم ١٩٨٦

على ظهوركم .. فالغادر ترفع له راية تفضح غدره .. والمغتصب يحمل على ظهره كل ما اغتصب في الدنيا ..

ومانع الزكاة يطارده ماله في صورة شجاع أقرع (ثعبان) .. **((ألا ساءَ ما يزرُونَ))** . إنهم مجرمون بحق انفسهم حين حرموها من السكينة والهداية في الدنيا ، ومن الجنة في الآخرة .. انهم مجرمون مع الآخرين ، فقد سببوا لهم الأذيّةَ حين تجاوزوا حدود الله ولم يلتزموا بشريعته .. انهم مجرمون مع ربهم ، حين قابلوا فضله وإحسانه بالتمرد والعصيان .. ويستمر التوبيخ والتأنيب **(ألَمْ أعهَدْ اليكُم يا بَنيْ آدمَ ألاّ تعبُدوا الشَّيْطانَ إنّهُ لكُم عدُوٌّ مُبِيْنٌ)** ؟! يابني آدم الذين أخذ الشيطان على نفسه عهداً بإضلالهم .. **((ولأُضِلَّنَّهُمْ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآمُرَنَّهُم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ..))**(١) .

يا بني آدم .. ألم أحذركم من عدوكم اللدود هذا ، وأطلب منكم ألا تعبدوه ؟ ولعل المسلم يعجب لهذه الآية .. وهل وُجِد أناس يعبدون الشيطان ..؟! ولكن العجب يزول لو رجعنا الى ما ذكره الاستاذ أبو الاعلى المودودي في كتابه « المصطلحات الاربعة في القرآن » عن العبادة .. وها أنا أنقل منه بعض التوضيحات :

« قال ابن سِيدَه في المخصص ٩٦/١٣ : أصل العبادة في اللغة : التذليل .. وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة طاعة كان للمعبود أو غير طاعة .. اهـ . **أي استسلام المرء وانقياده لأحد غيره ، انقياداً لا مقاومة معه ولا عدول عنه ولا عصيان له . حتى**

---

(١) سورة النساء ـ الآية ١١٩

يستخدمه هو حسب ما يرضى وكيف ما يشاء »(١) . ويقول بعد صفحات : (.. « **الم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين** » . الظاهر انه لا يتألّه أحد للشيطان (٢) في هذه الدنيا . بل كلٌ يلعنه ويطرده من نفسه . لذلك فان الجريمة التي يَصِمُ بها الله تعالى بني آدم يوم القيامة ليست تألّههم للشيطان في الحياة الدنيا ، بل اطاعتهم لأمره واتباعهم لحكمه ، وتسرعهم الى السبل التي أراهم اياها)(٣) . ويقول أيضا :

(« **اتّخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دونِ الله ، والمسيح ابنَ مريمَ ، وما أُمِروا إلاّ لِيَعبدوا إلهاً واحداً** »)(٤) . والمراد باتخاذ العلماء والاحبار أربابا من دون الله ثم عبادتهم في هذه الآية هو : الايمان بكونهم مالكي الامر والنهي والاطاعة لاحكامهم بدون سند من عند الله أو الرسول ، وقد صرّح بهذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاحاديث الصحيحة . فلما قيل له : « **إنّنا لم نَعْبُدْ علماءنا وأحبارنا . قالَ : ألَم تُحِلّوا ما أحلّوه ، وتُحرّموا ما حرّموهُ ؟** »)(٥) .

فليس الذي يعبد الاصنام وحده هو عابد الشيطان .. وإن هذه الصور البدائية للعبادة لم تعد لتنطلي على البشر ، ولا بد للشيطان من أن يلجأ الى مسالك وطرق أخرى توصله الى مأربه .

---

(١) المودودي ـ ابو الاعلى ، المصطلحات الاربعة في القرآن ، ص ٩٥ ، الطبعة الاولى ، دمشق ، المطبعة الهاشمية .

(٢) أي لا يعظمه ، ولا يتنسك له .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠١ .

(٤) سورة التوبة ـ الآية ٣١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٣

ولقد حذّرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من كيد الشيطان وأساليبه .. عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « **إنّ الشّيطانَ قدْ أيِسَ أنْ يَعْبُدَهُ المصلون في جزيرة العرب . ولكنْ في التّحريْش بينهم** »(١) ويقول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : « **ألاَ إنّ الشّيطانَ قد يئِسَ أنْ يُعبد في بلدكم هذا ، ولكن سيكونُ له طاعةٌ في بعض ما تحتقرون من أعمالكمْ فيرضى** »(٢) .

فليسمع المسلمون السادرون .. الذين غرّتهم الاماني ، وظنوا أنهم ناجون لمجرد أنهم يلعنون الشيطان بلسانهم .. وليحذروا قبل أن يقفوا في هذا الموقف العصيب بين يدي الملك الجبار وهو يؤنبهم ويذكرهم . (**ألم أعهد اليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدوٌ مبين ؟ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ..**) :

ان عبادة الله هي الصراط المستقيم .. ان طاعة الله هي أسهل وأقصر طريق للوصول الى سعادة الدنيا والآخرة . والصراط المستقيم هو الطريق التي بحثت عنه الاجيال واجتالتهم الشياطين عنها فتاهوا وراء الاهواء والفلسفات .. ألسنا نرى في منهج « تايلور » في هذا العصر صورة جديدة لتطلعات الانسان نحو الصراط المستقيم الذي يحقق أحسن النتائج بأقل جهد ووقت ممكن ؟! ولكن المسلمين حتى الآن لم يقدّموا للعالم المعاصر الدليل

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري الحديث ١٨٠٤ .

(٢) ذكره ابن كثير في الجزء الخامس من البداية والنهاية من رواية النسائي . وذلك عند الحديث عن خطبته صلى الله عليه وسلم يوم النحر في حجة الوداع .

بلغة العصر ـ التي هي لغة الارقام والاحصاء ـ على أن عبادة الله هي الصراط المستقيم .

(ولقدْ أضلَّ منكمْ جِبِلاً كثيراً .. أفلَمْ تكونوا تَعقِلون).

هذا الشيطان الذي أطعتموه .. لقد أضل منكم خلقاً كثيراً .. فكيف لم يعتبر اللاحقون منكم بما حل بالسابقين حين ضلوا عن طريق الله وتهاووا في دروب الشياطين ..؟!

(أفلَمْ تكُونوا تَعْقِلُونَ) ؟!

ويا لبؤس هذا الانسان الذي لم يفهم ولم يحقق معنى العبودية لله وحده في الحياة الدنيا .. ويا لحسرة هؤلاء العبيد وهوانهم حين تتكشف لهم الحقائق بعد فوات الأوان : **((هَلْ ينصُرونكم أو ينتصرون ؟! فكُبْكِبوا فيها هُمْ والغاوون . وجنود إبليسَ أجمعون . قالوا وهم يختصِمون : تاللهِ إنْ كُنا لفي ضلال مبينٍ . إذ نُسَوّيكُم بِربِّ العالمين . وما أضلَّنا إلا المُجرمون . فما لنا منْ شافِعينَ . ولا صديقٍ حميم . فلوْ أنّ لنا كرّةً فَنكونَ مِنَ المؤمنينَ))**(١) .

(أفلَمْ تكونوا تَعقِلون) ؟! انها النعمة الكبرى التي منّ الله بها عليكم فلم تستفيدوا منها ولم تقدروها حق قدرها .. انها الميزة التي خص الله بها الانسان وحده دون سائر المخلوقات وشرفه بها حتى أسجد له ملائكته .. انها العقل .. وما قيمة الانسان بدون عقل ؟! وما أعجز الانسان حين لا ينتفع من هذا العقل .. **((وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقِلُ ما كُنّا في أصحابِ السَّعيرِ))**(٢)

---

(١) سورة الشعراء ـ الآية ٩٢ ـ ١٠٢

(٢) سورة الملك ـ الآية ١٠ .

.. **(هـذه جهنّم التّي كنتم توعدون)** هاهي ذي ماثلة أمامكم .. وكنتم توعدون بها فتكذبون .. وتستهزئون .. ولو رأيتم قدرة الله من حولكم لما كذبتم .. هل تأملتم في هذا الجرم الصغير بالنسبة للكون .. الشمس التي تقدم لكم النور والدفء .. « درجة حرارة الشمس ٦٠٠٠ درجة مئوية عند السطح ، تزداد ارتفاعا كلما زاد العمق حتى تصل عند المركز الى درجة الحرارة الهائلة التي تبلغ ٢٠ مليون درجة مئوية .. ويقول جينز : اننا اذااستطعنا أن نأخذ من جيبنا قطعة نقود من ذات الخمسة قروش ، ونسخنها الى درجة حرارة مركز الشمس ، فان حرارتها تكون كافية لأن تجعل كل كائن حي على بعد آلاف من الاميال منها يضمر ويذبل »(١) وهناك في الكون من النجوم المشتعلة « ما هو أضعاف أضعاف حجم الشمس ، فكأن شمسنا أمامها هباءة .. » (٢) .

(اصْلَوْها اليوم بما كنتم تكفرون) : ذوقوها وتقلّبوا فيها بكفركم . وتتابع الآيات .. فتصف لنا مشهداً عجيباً مع هؤلاء الذين يحاكَمون أمام محكمة لا تنطلي عليها أساليب اللسان الذي رزق سحر البيان .. ان محكمة الله تعالى قادرة على استنطاق شهود من نوع فريد ..

(اليومَ نَخْتِمُ على أفْواهِهِمْ .. وتكَلّمنا ايديهِم وتشهدُ أرجُلُهم بما كانوا يكْسِبون) . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث القيامة ـ الطويل ـ قال فيه : **« ثُمّ يُلقى الثّالثُ فيقول : ما انتَ ؟ فيقولُ انا عبدُك آمنتُ بِكَ وبِنَبيّكَ وبكتابك**

(١ـ٢) الانسان بين العلم والدين ـ شوقي ابو خليل .

وصُمْتُ وصلَّيْتُ وتصدّقت ويُثني بخيرٍ ما استطاعَ ـ قال ـ فيقال له : ألا نبعثُ عليك شاهِدنا ؟ قال : فيُفكر في نفسه مَنْ ذا الَّذي يَشهد عليه ؟! فيُختَمُ على فِيْهِ ، ويقال لِفَخِذِهِ انْطِقي . قال : فتَنْطِقُ فخْذُه ولحمُه وعِظامُهُ بما كان يعمل وذلك المُنافق . وذلك لِيُعذَرَ من نفْسهِ وذلك الَّذي يسخطُ اللهُ تعالى عليه))(١) .

وينتهي المشهد على هذه الحال المريعة .. ولو شاء الله لفعل بهم غير ذلك ولأجرى عليهم من البلاء ما يريد .. ويعرض مشهدين من البلاء والسخرية بهم .

الاول : عُمْيانٌ ، يتزاحمون ويتخبَّطون على الصراط ..

(ولوْ نشاءُ لطَمسنا على أعْيُنِهم فاستبقوا الصِّراط فأنَّى يبصِرون ..) :

لقد كانت عيونهم عمياء في الدنيا عن الحقائق .. فما أجدرهم أن يُعاقَبوا بالحرمان منها في هذا اليوم ((**ومَنْ أعرَض عنْ ذِكْري فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً . ونحشُرُهُ يومَ القيامة أعمى . قال : ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً ؟! قال : كذلك أتَتْكَ آياتنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنْسى**))(٢) .

والثاني : استحالوا فيه الى تماثيل جامدة لا تستطيع حراكا.

(ولو نشاء لمسَخناهم على مكانَتِهم فما استطاعوا مُضيّاً ولا يرجِعون .) : لقد كانوا في الدنيا متحجري القلوب والعقول لا تؤثر فيهم الآيات والعبر . . كانوا جامدين لا يريدون أن يتحركوا خارج الدائرة التي وجدوا فيها آباءهم .. فما أحراهم أن يُمسخوا

---

(١) رواه مسلم وأبو داوود من حديث ((سفيان بن عيينة)) به بطوله .
(٢) سورة طـه ، الآية ١٢٤ ـ ١٢٦

على مكانتهم ويتحجروا كالتماثيل الشاخصة في هذا اليوم .. وكما أن الموت عبرة وعظة للانسان وكذلك الهرم والشيخوخة فانها تدل على أن الدنيا دار زوال وانتقال ..

(**ومن نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الخلقِ**) ان الذي يطول به العمر يصيبه الهرم وينتكس في الخلق ويتناقص في المقدرة .. فما لهم لا يعتبرون ..؟! (**أفلا يعقلون**) ؟! وللمرة الثانية يستنكر اهمال العقل على الناس . أوَ ليس غريبا أن يظن المسلم أن الدين يحجر على العقل وقرآنه لا تكاد تخلو صفحة منه من الاشارة الى العقل وأهمية التفكير ..؟! . يقول الدكتور عبد الرزاق نوفل في كتابه (الاعجاز العددي للقرآن الكريم) : « ان لفظ الايمان ومشتقاته قد تكرر ٨١١ مرة . وبالعدد نفسه تكرر لفظ العلم ومشتقاته والمعرفة ومشتقاتها » . ويقول عباس محمود العقاد في كتابه (التفكير فريضة اسلامية) : « ان التفكير يوجب الاسلام ، وان الاسلام يوجب التفكير » .. فكيف انقلب الامر عند المسلم حتى صار يخاف على ايمانه من العلم والفكر . وكأن الفكر هو الضلال ..!!

ان الاخلاص ــ أو الايمان ــ ان لم يُسقَ بماء الصواب ــ أو العلم ــ ذَبَلَ واضمحل . وان خوفنا هذا من العلم والعقل لهو الذي يزيد في تعقيد مشكلاتنا ويبعدنا عن رؤية الحل الصحيح . ورحم الله مالك بن نبي فقد كان يؤكد على أهمية خطر مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ويقول : « ان هذه الفضائح اليومية ، تنبع من فضيحة كبرى هي : تصورنا الصبياني للعالم الذي نعيش فيه »(١) .

---

(١) ابن نبي مالك ، الصراع الفكري ، ص ٣٩ ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٠ .

الفصل السادس

عودة الى القرآن ومناقشة الإنسان

قال الله تعالى :

وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾
وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ
وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ
مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾
أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا
ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

يأتي هذا المقطع الاخير من السورة ، وكأنه يلخص القضايا الاساسية التي بحثت فيها ويبرزها من جديد بايجاز .. فيعود الى تأكيد صدق القرآن ، ويتحدث عن توحيد الله وقدرته والبعث والنشور .. وذلك بأسلوب دامغ من البرهان ، بحيث تأتي النتيجة الحتمية لدى كل ذي لب .. تسبيحا لله في ملكوته .. تختم بـه السورة .. **(وما علّمناهُ الشّعْرَ وما ينْبَغي لَهُ ..)** : يرد على ادعاء المشركين بأن النبي شاعر والقرآن شعر . وما كان المشركون ليخفى عليهم اعجاز القرآن ، وقد كانوا سادة البلاغة وملوك البيان شعراً ونثراً . « ألم يصرّح بعض سادتهم عن اعجابهم بهذا القرآن من مثل عتبة بن ربيعة ـ أبو الوليد ـ حين انطلق الى محمد صلى الله عليه وسلم يعرض عليه المال والجاه و ... مقابل أن يتخلى عن دعوته . فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة « فصلت » .. فرجع أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فقالوا له : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم »(١) .

لم يكن اعجاز القرآن خافيا عليهم .. ولكن كان هذا الاتهام

---

(١) ذكره ابن اسحاق فقال : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال حدثت أن عتبة .. يراجع تفسير سورة القلم في ـ في ظلال القرآن ـ لسيد قطب.

طرفاً من حرب الدعاية ضد الرسول صلى الله عليه وسلم معتمدين فيه على جمال النسق القرآني وامكانية اختلاط الامر على العامة والجماهير التي قد لا تلمس الفارق بين منهج الشعر ومنهج النبوة.

يقول صاحب الظلال عند هذه الآية :

« فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الاساس .. هذه ـ في أعلى صورها ـ أشواق تصعد من الارض ، وتلك في صميمها هداية تتنزل من السماء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم على فصاحته وبلاغته ، ما كان يقول الشعر ولا يتقن روايته، لأن الله لم يعلمه الشعر .. **(وما علّمناهُ الشّعر وما ينْبغي له .. إنْ هو الاّ ذِكْر" وقرآن مبين)** وهما صفتان لشيء واحد .. فهو ذكر الله يشتغل به القلب ، وهو قرآن يُتلى ويشتغل به اللسان»(١)

وكلمة قرآن .. مصدر من قرأ . وحين نرجع الى (مختار الصحاح) للرازي نجده يشير الى معنيين : (قرأ الكتاب قراءة وقرآناً .. وقرأ الشيء قرْآناً بالضم أيضاً : جمعه وضمه . ومنه سُمي القرآن لأنه يجمع السور ويضمها . وقوله تعالى « ان علينا جمعه وقرآنه » أي قراءته .) .

فالآية تحدد صفته بأنه ذكر يذكرنا بالله والحقائق الكبرى التي قد تشغلنا الحياة اليومية عنها .. وقد نعرف أمورا كثيرة ... لكننا نحتاج الى من يذكرنا بها عندما تدعو الحاجة اليها .. وهو قرآن : نزل عليكم لتعملوا به وتطبقوه في كل نواحي حياتكم ، ولتشتغلوا بقراءته آناء الليل وأطراف النهار ..

---

(١) « في ظلال القرآن » تفسير الاية .

تبارك الله في علمه حين وصف هذا الكتاب بأنه قرآن .. ولا يمكن أن يوصف كتاب آخر على مر العصور والاجيال بأنه قرآن .. وهل حظي كتاب آخر على مرّ الايام بمثل ما حظي به هذا القرآن من التلاوة والقراءة ..؟ لقد رأيت التركي والشركسي والباكستاني يتلهفون على حفظه عن ظهر قلب ـ لأنهم يجهلون القراءة بالعربية .. كي يتمكنوا من قراءته آناء الليل واطراف النهار .. بل ان الاعجب من ذلك أنك قد لا تجد محطة في المذياع الا وتخصص لقراءة آيات منه وقتا معينا في ارسالها . « **إن هو الاّ ذكر" وقرآن مبين** » واضح .. والبيان هو عرض الموضوع بأساليب منوعة .. والقرآن قد عرض الحقائق وبيَّن الاحكام وفصَّل في الادلة والآيات حتى لم يبق مجا ل للاختلاط والغموض .. وانما الغموض من جهلنا وبعدنا عن لغة القرآن فما هو الهدف من ذلك ؟ (**لينذرَ مَنْ كانَ حَيّـاً ويَحقّ القولُ على الكافرين**) ، والانذار يكون للتنبيه الى الخطر المحدق بالانسان فما هو الخطر الذي ينذرنا منه القرآن ؟.. أهو الخطر الاخروي وحده ؟!.. بل انه ينذرنا أيضا من خطر الدنيا ودمار الامم فيها ، ونحن المسلمون أول من ينبغي له أن يسمع صفارة الانذار ، اذ أننا نمثل الامة المتخلفة المهزومة أمام أعدائها « ان الـ ١٢٠ مليون عربي الذين نزهو بهم هم الآن عبء لا قوة . انهم ١٢٠ مليون فم يأكل ، يستهلك ، لا ٢٤٠ مليون يد تعمل . أن مأساة الانسان العربي أنه الضحيّة التي لا تعرف أنها ضحية .. انه خائف .. الخوف عنده رفيق العمر ، نحن الـ ١٢٠ مليون خائف على المال .. على الولد .. على الصحة .. على الوظيفة .

وبعد حزيران ـ أي بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ـ كان الفشل الاكبر الذي سجل هو ان ذلك الخوف لم يتحول الى شعور كارث بالخطر ، بل ظل خوفا على المصالح الانانية .. ولم يصبح شعورا جماعيا بالكارثة .. اليهود في امريكا وجدوا الجراة ليعلنوا في دعوة عامة مصوّر اسرائيل قبل حزيران ١٩٦٧ ... واسرائيل عما قريب : وهي تشمل ما بين عدن والخليج حتى اقصى شمال العراق ... بعد سبعين سنة من التخطيط وصلوا الى القدس والى حدود آمنة أما نحن فعلى الارائك متكئون ... وكل الامور على ما يرام !! لم نفهم كيف نجعل الخطر في منزلة فَقدِ الخبز(١) .. لم ننجح في أن نضع في صدر كل بيت صورة الجمجمة والعظمتين انذارا بخطر الموت »(٢) .

والمراة العربية تسهم بدور كبير في هذه الغفلة .. فهي التي تضرب اقتصادنا القومي ـ على حد قول الاديبة نازك الملائكة في مقالتها : مآخذ اجتماعية على حياة المراة العربية ـ بسبب ما تنفق من مال ووقت وجهد وراء زينتها ، وان أكثرية دور الازياء ومعامل أدوات الزينة خاضعة لليهود الذين يتلاعبون بأزياء كل فصل باخراج (موضات) وتقاليع جديدة باستمرار .. والمراة العربية في لهاث وركض

---

(١) ان الشباب المثقف الحاصل على الاختصاصات التي من شانها ان ترفع مستوى أمتنا .. قد الهاه الجري اليومي وراء الخبز .. أو وراء الخبز الاحسن ... وبكل اسف انه القضية الكبرى في حياته .

(٢) من مقالة لشاكر مصطفى ، نشرت في مجلة الاسبوع العربي . عدد حزيران ١٩٧٢ تحت عنوان « أربعون عاما ونحن في التيه » .

دائم وراءها .. ناهيك عما ينتج هذا من تمزق ووهن في كياننا الاخلاقي والاجتماعي . وليس الخطر محدقا بالعالم الاسلامي وحده .. بل الانسانية كلها .. وان التقدم التكنولوجي الذي وصلت اليه البشرية يمكن أن يدمر العالم خلال دقائق ان لم يترافق بتقدم أخلاقي . ولكن من هو الذي يحس بالخطر ويفيده الانذار ؟.

(لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَوْلُ على الكَافِرِيْنَ) .

والقرآن يجعل الكفر موتاً والايمان حياة.. فأما الحي فإنه سيسمع الانذار وسيسرع نحو الخلاص لنفسه وللآخرين .. وأما الكافرون فإنهم موتى لا يسمعون ولا يشعرون بالخطر .

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ولكنْ لا حياة لمن تنادي

ولهذا فإنهم لا بد أن يقعوا في الهاوية التي كانوا يسرعون إليها وهم لاهون غافلون . وهكذا يَحِقُّ القول عليهم ويكون القرآن حجة عليهم تثبت جدارتهم بالعذاب .. وإن الله لا يعذب الا بعد إنذار .

وتعود الآيات لتذكر أدلة من الكون على قدرة الله ونعمته وتناقش الانسان بها :

(أوَلَمْ يَرَوْا انّا خَلَقْنَا لهُم مِمّا عملت أيْدِيْنا أنعَاماً فَهُمْ لَهَا مالِكونَ ؟! وَذَلَّلْناها لهُمْ فمِنْها رَكُوبُهم ومِنها يأكلُونَ) : خلقها لكم وجعلها مذللة نافعة لكم وأعطاكم القدرة على تذليلها والانتفاع منها . بينما أنتم لا تملكون أن تخلقوا ذباباً .. ولا أن تذللوه .. **« لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً وَلَو اجْتَمعوا لَهُ . وَإنْ**

يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذوهُ مِنهُ ، ضَعُفَ الطّالبُ والمَطْلوبُ))(١) .

لذا يأتي التوجيه في آيات أخرى : **((وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ والأنْعامِ ما تَرْكَبونَ لِتَسْتَوُوا على ظُهورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ، وتقولوا : سُبحانَ الذي سَخَّرَ لَنا هذا وما كُنّا لَهُ مُقْرِنينَ (٢) وَإنّا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبونَ))(٣) .** وقد ورد : **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ثم قال : سُبْحانَ الذي سخَّرَ لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا الى ربنا لمنقلبون))(٤) .**

(.. وَمِنْها يَأْكُلونَ .. وَلَهُم فيها مَنافِعُ ومَشارِبُ .)

يشير إجمالاً الى المنافع الكثيرة التي نحصل عليها منها : اللحم ـ اللبن ومشتقاته ـ الجلد ـ الصوف .. **(أفَلا يَشْكُرونَ)** ؟ . حين ينظر الانسان بهذا المنظار يحس بأنه مغمور بفيض من نعم الله وتصبح حياته كلها تسبيحاً وحمداً لله . ولكن أين الذين يستشعرون ويذكرون ؟.

((وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُموهُ وَإنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصوها إنّ الانْسانَ لَظَلومٌ كَفّار))(٥) وهل الذكر والشكر كلمات منمّقة تتردد على الألسنة في المناسبات ..؟! بل إن الله تعالى

---

(١) سورة الحج ـ الآية ٧٣ .
(٢) مطيقين .
(٣) سورة الزخرف ـ الآية ١٤ .
(٤) روي في صحيح مسلم في كتاب المناسك عن عبد الله بن عمر
(٥) سورة ابراهيم ـ الآية ٣٤ .

يبين أن الشكر المطلوب هو شكر بالعمل : ((**اعْمَلوا آلَ داودَ شكْراً وقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشكور ..**))(١) . ولو كان الشكر باللسان لما كانوا قليلا .. ورغم هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وفضله ـ فإنك ترى كثيراً من الناس يتخذون من دون الله آلهةً اخرى يتوجهون اليها بالطاعة أو الدعاء ..

(واتَّخَذوا مِنْ دونِ اللهِ آلهةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرونَ) .

رحم الله اقبال اذ يقول :

تلَوَّنْ في كُلِّ حالٍ مَنَاةْ شَابَ بَنو الدّهْرِ وهِيَ فَتاةْ

فالشرك ألوان تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولا يكفي أن توحد الخالق حتى تكون مسلماً موحداً .. بل لا بد أن توحد الله حاكماً ومشرعاً .. وتوحده قاضياً للحاجات مجيباً للدعاء ..

وعلى هذا فإن العالم الاسلامي قبل غيره يبدو زاخراً بالشرك . فعامة المسلمين لا تتجه الى الله مباشرة بحوائجها ، ولا يتعلق قلبها به عز وجل ، وهي بذلك تخالف شريعة الله .. ومع أن روّاد النهضة قد بذلوا جهداً مباركاً لتوضيح معالم الشرك في هذه المجالات من أمثال سيد قطب رحمه الله ، وأبو الاعلى المودودي بارك الله في عمره وانتاجه ، ومحمد الغزالي .. ولكن المرض يحتاج الى مزيد من العناية والجهد (٢) .. وما الذي يجعل الناس تتخذ آلهة من دون الله وتلجأ إليها ؟! انه الجهل بحقيقة الالوهية والعبودية ..

---

(١) سورة سبا ـ الآية ٥ .

(٢) راجع كتاب المصطلحات الاربعة للمودودي . وكتاب عقيدة المسلم للغزالي .

والظن بأن هذه الآلهة تملك نفعاً او ضراً للانسان .. (**لعلّهُمْ يُنْصَرونَ**) . ولكنها مجرد أماني ، ليس لها رصيد من الحقيقة : (**لا يَسْتطيعونَ نصرهمْ وَهُمْ لهُم جندٌ مُحْضرون**) . فالحقيقة أنهم كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدي عليها معتدٍ . فكانوا هم جنودها وحماتها في الوقت الذي كانوا يتصوّرون أنها تنصرهم وتحميهم .. وكذلك الذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم .. إنهم جند محضرون للطغاة ثم هم في الوقت ذاته يخرون راكعين للطغيان ، ويتصورون أن الطاغية يملك أمرهم ويستطيع نصرهم .. وقد قيل لفرعون: ما فرعنك ؟ فقال: لا أحد يردعني ..

والقرآن حين عالج مشكلة الاستكبار والاستضعاف ، بدأ من المستضعَف وحرّره من العبودية لكل أحد إلا لله .. وعلمه كيف يقول : لا .. في وجه الطغاة الذين يدّعون لأنفسهم أحقية التحكم في حياة البشر .. « **كلاّ .. لا تُطِعْهُ .. واسْجُدْ واقْتَرِبْ** »(١).

ولو أن الناس امتنعوا من السير مع الانحراف وأعلنوا عدم الطاعة لمن يأمرهم بمخالفة أمر الله ، لاضطر المستكبر أن يأمرهم ويحكم فيهم بأمر الله ، حرصاً منه على دوام نفوذه ؛ وإلا فعلى من سيكون حاكماً لو رفض الناس طاعة أمره ؟!

الناس يخشون من جاه المليك وما
لديه لولاهم في ملكه من جاه

---

(١) سورة العلق ـ الآية ١٩.

كصانع صنماً يوماً على يده

وبعد ذلك يرجوه ويخشاه

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة

فتنوء منه بفادح الأثقال

ظلم الرعية كالعقاب لجهلها

ألم المريض عقوبة الاهمال

وفي الآخرة تنكشف الحقائق ويقال لهؤلاء المستعبَدين ..

« أينَ ما كُنتُمْ تَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ ؟ هَلْ يَنْصُرونكُمْ أو يَنْتَصِرونَ ؟ » فلا يجدون لأنفسهم مخرجاً ويندمون ويتحسرون **« تَاللهِ إنْ كُنَّا لفي ضَلالٍ مُبينٍ إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين. »**(١) ويتوجه الله تعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم يواسيه ويخفف عنه الحزن لموقفهم ..

(فَلا يحزُنْكَ قَوْلُهُم إنَّا نَعْلَمُ مايُسِرّونَ وما يُعْلِنون): ان الله محيط بهم علماً ، وأمرهم على الله هين ، فلا تكترث بهم ولا تحزن عليهم ..

(أوَلَمْ يَرَ الانسانُ انَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ) يقول الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآيات : (قال مجاهد وعكرمة وعروة ابن الزبير والسدّي وقتادة : جاء أُبَيّ بن خلف لعنه الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم . وهو يفتّه ويذروه في الهواء . وهو يقول : يامحمد

---

(١) سورة الشعراء ـ الاية ٩٨ .

أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم ((**نَعَمْ يُميتك اللهُ تعالى ثمّ يَبْعَثُكَ ، ثمّ يحشرُك الى النّار**)) ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » ((**أولم يرَ الانسانُ أنّا خلقناه من نطفة**))(١) والخطاب للانسان في الآية فيه تعجب واستنكار. والانسان اليوم قد رأى رؤية علمية كيف يتم تطور هذه النطفة التي لا ترى بالعين المجردة حتى تصبح جنيناً ثم وليداً .. ثم إنساناً سوياً معتداً بنفسه .. يخاصم ويتطاول بلسانه حتى على ربه الذي خلقه ..! ((**قُتِلَ الانسانُ ما أكفرهُ !! مِنْ أيّ شيءٍ خَلَقَهُ ؟! مِنْ نُطْفةٍ خَلَقَهُ فَقَدّرَهُ . ثمّ السّبيلَ يَسّرَهُ . ثمّ أماتهُ فأقبرَهُ . ثمّ إذا شاءَ أنْشَرَهُ . كلاّ لمّا يَقْضِ ما أمَرَهُ ..**))(٢) .

(**وَضَرَبَ لنا مثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال : منْ يُحْيي العِظامَ وَهِيَ رميمٌ**) : ان الاعجاز في بيان صدق البعث في هذه الآيات يبلغ القمة .. وبأسلوب بليغ يستعمل فيه أقل الكلمات الممكنة ومع ذلك يقدم البرهان بجلاء .. ويسخر من هذا المغفل الذي جاء ليخاصم ويجادل بينما وجوده ذاته يرد عليه ((**ونسِيَ خلقه**)) ؟! ((**أمْ خُلِقوا منْ غيرِ شيءٍ ؟ أمْ همُ الخالقون؟! أمْ خَلَقوا السّمواتِ والارضَ بل لايوقِنونَ .**))(٣) .

(**قُلْ يُحْيِيها الّذي أنْشَأها أوّلَ مرةٍ وَهُوَ بكلّ خلقٍ عليمٌ**) :

---

(١) تفسير ابن كثير .
(٢) سورة عبس ـ الآية ٢٣
(٣) سورة الطور ـ الاية ٣٥ .

يذكر ابن كثير حديثاً يرويه الامام أحمد (وقد اخرجاه في الصحيحين) عن حذيفة قال سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : **« إن رجلا حضره الموت فلما أيِسَ من الحياةِ أوْصى أهلَهُ اذا أنا مِتّ فاجمعوا لي حطبا كثيرا جزلا ثم أوقدوا فيه نارا حتى اذا أكلت لحمي وخلصت الى عظمي فامْتَحَشَتْ فخُذوها فدُقّوها فذروها في اليمِّ . ففعلوا . فجَمعهُ الله تعالى اليه ثم قال له : لِمَ فعلتَ ذلك قال : من خشيَتك : ففغر الله عز وجل له »** .

(الذي جعلَ لكم منَ الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقِدون) :

وكم تعب الانسان القديم حتى كشف النار واستعمل الحطب لحاجاته بعد ذلك . ونحن الآن ندرك عظمة الخالق وتدبيره حين وضع في الشجر هذه الخصائص ، فهذا الشجر الاخضر الذي يبدو منظره الناضر الريّان أبعد ما يكون عن النار والاحتراق .. انه يمتص الحرارة من الشمس ويختزنها .. ثم يولدها بعد ذلك عند الاحتكاك وعند الاحتراق .. بل اننا حين نتأمل الوقود الذي تستعمله الصناعات الحديثة الآن .. الفحم الحجري .. نرى أن علم الجيولوجيا الآن يرد هذا الوقود الى النباتات القديمة التي دفنت داخل طبقات الارض وتفحمت عبر الاجيال . **« ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبير »** .

(أوَ ليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ..؟) :

السموات التي لم ندرك أبعادها حتى الآن .. أرضنا جزء

صغير كالذرة التائهة بالنسبة للمجموعة الشمسية .. ومجموعتنا الشمسية نقطة صغيرة في بحر مجرتنا التي تحتوي على ١٠٠٠٠٠ مليون نجم ... وفي الكون من أمثال مجرتنا ١٠٠٠ مليون مجرة .. ان العقل الانساني يصاب بالدوار لو حاول أن يستحضر مدلولات هذه الابعاد والارقام . فاعرف نفسك أيها الانسان والزم حدك .. ولا تتعد حدود الادب مع خالق السموات والارض . **(بلى وهو الخلاق العليم . انما امره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)** ليس هناك سهل ولا صعب على الله .. وتوجه الارادة الالهية لخلق الشيء كاف لوجوده بكلمة مكونة من حرفين (كن) وعندما يصل الانسان بفكره ووعيه مع الآيات الى هذا المدى . تظهر النتيجة الحتمية لهذه الادلة في النفس الواعية المؤمنة ويتجاوب الكون بأصداء التسبيحة الخاشعة لله .

(فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون):

تنزه الله عن كل نقص أو عيب .. تنزه الذي بيده زمام كل شيء واليه يرجع كل شيء ..

فهل يجرؤ من يؤمن بهذه الآية الاخيرة على مخالفة أمر من أوامر الله ؟!

« قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟! سيقولون لله . قل افلا تذكرون ؟! قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟! سيقولون الله . قل افلا تتقون ؟! قل من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟! سيقولون لله . قل فانى تسحرون ؟! بل اتيناهم بالحق ، وانهم

لكاذبون .. (١) .

روي في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان الى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم))** (٢) .

الا أنها ليست كلمات تقال باللسان .. وتعد وتحصى مع حبات (المسبحة) لكنها أشواق تنطلق نحو السماء .. ووجيب قلب يتطلع خاشعا الى الارض فيخالها رفعت من الاشجار أذرعا .. ضارعة الى الله .. ويرفع بصره الى السماء فيظنها تتبتل الى الله بنجوم تلمع كالدموع ..

فسبحان الله الذي تسبح له السموات والارض ومن فيهن ..

((وإن من شيءٍ الا يُسبّحُ بحمدهِ ولكن لا تفقهون تسبيحهم))(٣) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ملحوظة :

يسرّ الاخوة المؤلفين الذين ننشر لهم ، أن ترسلوا لهم أيّ اقتراح حول ما يكتبونه .

ويمكن الاتصال بهم عن طريق : دار الثقافة للجميع . دمشق ص.ب ٥٠١٦ .

---

(١) سورة المؤمنون ـ الآية ٨٤ ـ ٩٠

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) سورة الاسراء ـ الاية ٤٤ .

من مراجع الكتاب

١ ـ كتاب الله « القرآن الكريم » .
٢ ـ مختصر « صحيح مسلم » للمنذري .
٣ ـ تفسير « ابن كثير » .
٤ ـ تفسير « المنار » للشيخ رشيد رضا .
٥ ـ تفسير « في ظلال القرآن » .
٦ ـ سنن أبي داوود والترمذي والنسائي .
٧ ـ « رياض الصالحين » للامام النووي .
٨ ـ سلسلة الاحاديث الصحيحة لناصر الدين الالباني .
٩ ـ الترغيب والترهيب .
١٠ ـ « البداية والنهاية » لابن كثير .
١١ ـ سيرة ابن هشام .
١٢ ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم . تأليف جودت سعيد .
١٣ ـ مذهب ابن آدم الاول . تأليف جودت سعيد .
١٤ ـ مشكلة الافكار في العالم الاسلامي . تأليف : مالك بن نبي .
١٥ ـ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة . تأليف : مالك بن نبي
١٦ ـ الافريقية الآسيوية . تأليف : مالك بن نبي .
١٧ ـ شروط النهضة . تأليف : مالك بن نبي .
١٨ ـ في مهب المعركة . تأليف : مالك بن نبي .
١٩ ـ المصطلحات الاربعة في القرآن . تأليف : أبو الاعلى المودودي
٢٠ ـ نحن والحضارة الغربية . تأليف أبو الاعلى المودودي .
٢١ ـ واجب الشباب المسلم اليوم . تأليف : أبو الاعلى المودودي
٢٢ ـ عقيدة المسلم . تأليف : محمد الغزالي .

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	١٣	ليست	ليس
٨	١٣	يتنزل اليك	أنزل عليك
١١	١١	المرسلول	المرسلون
١٨	٥	مثل الكتاب	مثل هذا الكتاب
١٩	١١	منهم	فيهم
٢٤	٦	الناس	الانسان
٥٠	١	الكذبين	المكذبين
٥٣	١٩	انما	انها
٧١	٩	الأذن	الإذن
٧١	١٧	حتى إذا جاء	« حتى إذا جاء »
٧٨	١١	هـــل	و قيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل
٧٨	١٢	وهم يختصمون	وهم فيها يختصمون
٨٥	١١	ذكر الله	ذكر" لله

أستدراك :

يرجى ضبط المقطع الأول من صفحة ٢٠ كما يلي :
إن هذه الآيات تتحدث عن عمل الله تعالى فقط ـ كما قد يظهر لأول وهلة ـ ولنفهمها بوضوح ، يجب استحضار الآيات الكريمة التي تذكر صراحة العلاقة بين عمل الله وكسب الانسان ، مثل قوله تعالى :

المحتوى

الموضـــوع	الصفحـة
تقديم جود ت سعيد	٣ ـ ٧
مقدمـــة	٨ ـ ٩
تعريف بالسورة	١٠
هيكل السورة	١١ ـ ١٢
الفصل الاول :	
القرآن ومواقف الناس منه	١٣ ـ ٣١
الفصل الثاني :	
قصة أصحاب القرية	٣٢ ـ ٥٠
الفصل الثالث :	
آيات من الكـون	٥١ ـ ٥٩
الفصل الرابع :	
من مواقف الكفار	٦٠ ـ ٦٨
الفصل الخامس :	
الموت والقيامة	٦٩ ـ ٨١
الفصل السادس :	
عودة الى القرآن ومناقشة الانسان	٨٢ ـ ٩٦
مراجع الكتاب	٩٧

من منشوراتنا

أولا ـ أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع :

تأليف : الاستاذ جودت سعيد

١ ـ مذهب ابن آدم الاول (مشكلة العنف في العمل الاسلامي)
٢ ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم .
٣ ـ الانسان حين يكون كلاً ، وحين يكون عدلا .
٤ ـ فقدان التوازن الاجتماعي .

ثانيا ـ من أخبار الصحابيات :

تأليف : حنان لحام

١ ـ سميّة بنت خياط (الشهيدة الاولى) .
٢ ـ أم سليم بنت ملحان (الزوجة المؤمنة) .

ثالثا ـ للبراعم :

تأليف : الاستاذ موفق سليمة

١ ـ روضة البراعم المصورة (١ ـ ٤) .
٢ ـ مسرحيات مؤمنة (١ ـ ٣) .

رابعا ـ للجميع :

١ ـ الادمان أقوى دافع اصطناعي .

تأليف : دكتور نِل بيجيرو

ترجمة : دكتور فاروق سيد عبد السلام

٢ ـ أضواء على سورة « يس »

تأليف : حنان لحام ـ تقديم : جودت سعيد

هـــذا الكتاب

ـ ان عودة مجد الاسلام ، لن تكون الا بعودة الامة المسلمة الى القرآن الكريم : يتدبرون آياته ويتلونه حق تلاوته ، ويرون في الآفاق والانفس آيات الله ، التي تبين ان ما جاء به القرآن هـــو الحـــق .

ـ وكلما ازداد الانسان علما ومعرفة ، ازدادت قدرته على تطهير قلبه من الكراهية والاحقاد ، وصار يشفق على من يجهل الحق ، ويعذره ... ويتمنى له الهداية ولو آذاه .

دار الثقافة للجميع
للطباعة والنشر والتوزيع

الثمن : ٢٥٠ ق.ل